من منشورات أنفاس
Anfasse.org

الأصولية
كما فسّرتها لابنتي

د.حميد زناز

ضربة البداية

إنك لا تعرفين السعادةَ التي غمَرتني حينما عرفتُ أن أمك كانت حاملاً. وزادت سعادتي حينما عرفت بعد أشهر قليلة أن المولود القادم كان أنتِ. كم تمر الأيام سريعة رغم المِحن والحنين إلى ما مضى.

أنتِ اليوم شابة جميلة، تتحضرين لدراسة الآداب. سبعة عشر ربيعاً، قضيتِ منها خمسة عشر سنة كاملة في المدرسة الفرنسية. قلتُ لك وتعجبتِ يومها أنني لم أدخل المدرسة حتى بلوغي سن السابعة لظروف استعمارية قاهرة مرّت بها بلدي الجزائر. وكم كنتِ حزينة حينما أخبرْتك أنه لولا استقلال الجزائر لكان أبوك أُمياً لا يقرأ ولا يكتب. مبكراً بدأتِ تسألين عن اللّه والدين وبلاد العرب، وعن الجزائر خصوصا... عن الملبس والمأكل والصلاة ورمال الصحراء الذهبية التي أبهرتك في الصور. تسألين عن زرقة البحر المتوسط وعن حرارة الجو التي كثيراً ما حدثتك عنهما. كنتِ تعتبرينني محظوظا لأنني ولدت على بعد أمتار من البحر، ولأني عشت قرب الشاطئ أكثر من ثلاثين سنة أتمتع بلذة البحر. إلى أن جئت إلى أوروبا مضطرا، عامين قبل أن تأتي أنت إلى هذا العالم، في شماله البارد.

قلتِ أنكِ تريدين أن نتحدث عما أصبح مشكلة المشاكل اليوم. وتعنين الأصولية الإسلامية وما تمثله من إشكاليات في عصرنا، سواء في بلدان الإسلام الأصلية أو في البلدان التي استقبلت هذا الدين عن طريق كثير من المهاجرين.

ما يعجبني فيك هو انتماؤك العفوي إلى القبيلة العربية، رغم أنك ولدت في شمال فرنسا البارد. ولئن كنت تحلمين بمواطنة عالمية مسالمة فإنك سعيدة في هذا البلد وتعتبرينه موطنك الأول. ودون السقوط في فرويدية بائسة، تعرفين يا عزيزتي أنها سعادة قصوى لكل أب أن يتحاور ويتناقش مع ابنته الكبرى.

نعم، كما اتفقنا، أتعهد بأن أُفرغ كل ما في جعبتي، وأن أجيب على أسئلتك، مهما كانت، بمنتهى الصراحة ودون مراوغة، وذلك حسب قدراتي المعرفية وقناعاتي الفلسفية والسياسية. فما عليك سوى شحذ أسئلتك ورفع أعلام معارضتك، وعليّ بالجواب ومحاولة التفسير وإبداء رأيي بكل صراحة ومسؤولية ولامسؤولية أحيانا؛ (تبتسمين).

لنبدأ السَقرَطَة إذن! لكن لا تنسي تشغيل المسجلة.

لا... ليست بحاجة إلى تشغيل، فلها تشغيل ذاتي: تبدأ بالتسجيل تلقائياً حينما نتكلم وتتوقف عندما نصمت.

هل تريدين تعقيدي من البداية؟ إننا في عصر الذكاء الاصطناعي، أعرف ذلك.

حسنا.. لنمضي إلى لب المسألة. قرأت مرة في ورقة من أوراقك المتناثرة في البيت جملة أظن أنها عنوان مقالة أو كتاب أو لست أدري، لا أتذكر جيدا، ربما كانت "الإسلام والحداثة، المعادلة الصعبة"، أو شيئاً من هذا القبيل.

آه نعم، "الإسلام والحداثة، المعادلة المستحيلة". ذاك كان العنوان الأول لكتابي المنشور بالفرنسية[1] تحت عنوان: "إصلاح الإسلام، شبهة موصوفة"، والذي أعيد نشره مؤخراً تحت عنوان "الانسداد الإسلامي، الدين ضد الحياة"[2]. وهو نفس الموضوع الذي تناولته في "فصل الكلام في الرد على أهل الظلام" الصادر باللغة العربية[3]. غير أني فهمتُ ما تقصدين بتلميحك إلى أوراقي المتناثرة في البيت، نعم أعترف بأنني أجد راحة في الفوضى ولست مهووساً بالتنظيم على كل حال.

ربما يعكس ذلك شيئاً ما في أعماقك. ألم تقل لي يوما أنك كنت "أناركيا" في شبابك؟

هذا أمر آخر ذو شجون، ليس هنا مجال الخوض فيه، وربما سنعود إلى ذلك لاحقاً. ولكن ما هو السؤال الذي كنت تهمّين بطرحه من قبل كي لا نبتعد كثيراً عن موضوعنا؟

كنت أود أن أسألكَ فيما إذا كنتَ تقصد في عقد مقارنتكَ بين الإسلام والحداثة أن الإسلام والحياة المعاصرة خطان متوازيان لا يلتقيان أبدا؟

نعم ذاك ما أقصده بالضبط. لكن يمكن أن يلتقيا في حالة واحدة فقط. لا أظن أن أحداً غيري اهتدى إليها.

وأخيرا ها أنتَ تنحو نحو إيجابية ما! هاتِ هاتِ كيف يلتقيان إذن؟

بإذن الله وقدرته فقط!

ها أنا أراك تعود إلى عادتك. لقد أضحكتني مرة حينما كان الأمر متعلقاً بالخطين المتوازيين. لكن ملاحظاتي الآتية سوف لن تضحكك كثيراً.

ربما وما هي يا عزيزتي؟

هل تريد أن تقول بأن أكثر من مليار مسلم يعيش خارج الحداثة. ألا تكون قاسيا في بعض أحكامك أحيانا؟ ألا يركب الناس في العالم الإسلامي سيارات ويمتطون طائرات ويستعملون كومبيوترات ويتعلمون في جامعات... إلى آخر القائمة؟

سؤالكِ في غاية الأهمية، وقد يُدخلنا إلى قلب المشكلة مباشرة، وربما سيحدد مسار حديثنا بمجمله، إذ ينبغي من الآن فصاعداً أن نحدّد مصطلحاتنا بشيء من الدقة كي نتفادى عدم التفاهم، وربما سوء التفاهم. فكثيرا ما تقاتل الناس حول كلمات لا يتفقون على حد أدنى مما تحمله من معنى.

إلى هذا الحد؟!

في ملاحظتكِ الذكية أنت تتحدثين عن التحديث في دول الإسلام لا عن الحداثة فيها.

وما الفرق يا أستاذ؟

هكذا هي الأمور معكِ يا تلميذة؛ تَجدينني لا مبالياً وعدمياً حينما أنكّت، وتتهمينني بممارسة الأستاذية معك حينما أحاول أن أكون جدياً! حسنا لن أجيب عن سؤالك اليوم وأترك لك فرصة

---

[1] Réformer l'islam, autopsie d'une illusion caractérisée, Indépendant. Com 2007 □

[2] L'impasse islamique, la religion contre la vie, préface de Michel Onfray, éditions libertaires, 2009

[3] دار الساقي ورابطة العقلانيين العرب 2009.

البحث عن معنى الكلمتين ونكمل الحديث لاحقاً إذا كانت لديك رغبة. تعرفين أنني لا أستطيع تفويت فرصة مشاهدة مباراة كرة قدم يكون فيها المنتخب الجزائري أحد أطرافها!

مباراة حسنة إذن!

بحث مثمر عن المصطلحين يا عزيزتي!

❖❖❖

مرت ثلاثة أيام ولم نتمكن من تنظيم جلسة نستأنف فيها حديثنا؛ فأنت دائما مشغولة. تنتقلين من الثانوية إلى كرة اليد ومن كرة اليد إلى النشاط المسرحي... وفروض تلو فروض. ما هذا "الريتم" الجهنمي؟

هل تعرف أن في أسبوعي أكثر من 25 ساعة دوام، بالإضافة إلى 3 ساعات لغة إيطالية، فضلاً عن 3 ساعات أخرى أمارس فيها رياضة كاختيار فردي؟

فهمت! إذن أنا برفقة "كوزيت"[1] البؤساء..

لا.. أنا لا أشتكي بل أحاول أن أضعك في الصورة فقط.

لا يهم، هل وجدتِ الفرق بين الحداثة والتحديث؟ ولو أنني شخصيا أعرف معنى الحداثة حينما لا يسألني بشأنها أحد ولكن حينما يُطلب مني تعريفها أعجز عن ذلك. وهذا ما يقوله الجزائري القديس أوغسطين (354-430م) عن موضوع الزمن تماما.

هو جزائري! لم أكن أعرف..

ولا تعرفين أيضا أن ابن بلدي هذا هو مبدع عبارة "الخطيئة الأصلية"؟

هكذا..

عليكِ أن تنظري ما يقول فيه الجزائري الآخر صاحب "نجمة" التي أحببتِ كثيرا..

آه... نعم كاتب ياسين..

على صفحات "الشاعر كملاكم". فتشي عن الكتاب، إنه في ركن من أركان البيت.

لكن هاتِ ما وجدتِ حول الحداثة والتحديث؟

تطلق صفة "حديث" في المعنى العام يا أستاذ على كل ما هو معاصر. ومن هذا المنطلق كل مرحلة تاريخية يمكن أن تصف نفسها بـ"الحديثة" مقارنة بالمرحلة التي سبقتها.

تعنين أن كل ما هو حديث معاصر؟

أبداً.. قرأت أن "العصور الحديثة" غير محددة بدايتها بدقة بالنسبة لتاريخ الفلسفة. والسؤال: هل ينبغي اعتبار كل ما جاء بعد العصور القديمة حديثاً، أم اعتبار عصر النهضة الأوروبي هو البداية، أم ديكارت، أم قرن الأنوار؟

والحاصل؟

[1] شخصية رئيسية في رواية فـيكتور هيغو الشهيرة، **البؤساء**. (الناشر)

اختصاراً، باستطاعتنا القول، أو بالأحرى تقول القواميس، (مبتسمة) إنه يمكن أن نعتبر أن انطلاق الحداثة كان ابتداء من القرن السادس عشر، وفي أوروبا على وجه التحديد.

في أوروبا حصرياً، كما تقول إعلانات التلفزيون؟

نعم.. لكن امتد تأثيرها إلى مناطق أخرى من العالم، على الأقل فيما يتعلق بالتحديث الاقتصادي. الحداثة أوروبية، بمعنى أنها وليدةُ النزعة البروتستانتية (وميلاد الرأسمالية)، الاكتشافات العلمية، وإيديولوجية التقدم التي بزغت مع ما يسمى "الأنوار".

أقرأ على ورقتكِ الزرقاء اسم بودلير ورامبو، هل للشاعرين الفرنسيين العظيمين علاقة بموضوعنا؟

آه حذار من التطفل!

لا.. لا.. تعرفين بأنني أبعد الناس عن ذلك! لكن في الاسمين جاذبية ما. ومع ذلك أعتذر يا سيدتي.

أعرف أنكَ مدمن على قراءةُ "أزهار الشر" و"المركب السكران". في الحقيقة وجدت مقالة عن طريق أحد محركات البحث في الانترنت، لاحظَ فيها كاتبها أنه بغض النظر عن اختلاف وجهات النظر في تحديد أصل الحداثة، فلم تتأكد الحداثة كمشروع مستقبلي واع ينبغي البحث عنه وصياغته سوى مع بودلير القائل إن الحداثة هي "الانتقالي والهارب والطارئ السريع الزوال والذي على الفن أيضاً أن يُظهر جماله"، ومع رامبو الداعي إلى "ضرورةُ عيش الحداثة بشكل مطلق"، وكذلك مع أبولينير.

حسنا، لنكمل حديثنا. لنكتفِ بما تفضلتِ به حول الحداثة لحد الآن وسنعود ربما للقضية لاحقاً، ولكن دون أن ننسى أن نذكر أن أساس الحداثة الرئيسية هو الاعتماد على العقل في كل شيء.

إذا كنا قد جمعنا بعض العناصر التي قد قرّبتنا شيئا ما من "الحداثة" يا صديقتي، فما المقصود من التحديث إذن؟ طبعاً لا تحاولي التعريف بل المقاربة، لأن كل تعريف ما هو سوى غلق لبابٍ ما، في حين أننا نحاول أن نفتح كل الأبواب.

لقد نسيتَ الأهم! ألم تقل لي أن "الحداثة مشروع تنويري لم يكتمل"؟

بلى.. ولن يكتمل أبداً. أما عن المقولة التي ذكرتِ فهي عنوان مقال مشهور للفيلسوف يورغن هابرماس[1].

ومن هو هامبرماس؟ هل لكَ أن تحدثني عنه قليلا؟

أبداً.. لقد سبق واتفقنا أن تبحثي وألا تنتظري حصد المعرفة حصداً من الغير.

ها أنتَ تسلك الآن دروب مَن تنتقد؟

كيف ومن هؤلاء؟

الوعاظ وكل الذين يقدمون دروساً في الأخلاق.

[1] Habermas(J), La modernité un projet inachevé, in revue Critique n°413

عذرا لم أكن أقصد ذلك وإنما كان العكس تماماً يا عزيزتي. لا أرغب تعويدك الاتكال على الآخرين. أود أن تحققي في الأشياء بنفسكِ. فضلاً عن أنني لا أريد أن ألعب معكِ دور الأب ولا دور الأستاذ كما تعرفين، فلستُ إلا محاورك.

نعم.. ردّدتَ على مسامعي دائما جملتكَ المعهودة: "الأب دائماً سيء، تلك هي القاعدة".

هي لجان بول سارتر.

ومن هو (ضاحكة)؟ قرأت له مسرحية "الذباب" وبعض مقاطع من "الغثيان".

على كل حال ستدرسينه غصباً عنكِ في السنة القادمة، لأنه مبرمج في السنة النهائية فلسفة وآداب. لكن حبذا لو عدنا إلى موضوع دردشتنا. فما التحديث إذن؟

التحديث هو ببساطة التطبيق العملي المادي للحداثة. الاستفادة من كل منتجاتها النفعية. تَبنّي التكنولوجيا والتقنية، وكل ما هو آلي ثم إلكتروني... الخ.

إذن امتطاء الطائرات والقطارات واستعمال الكومبيوترات لا يعني أننا نعيش الحداثة كما كنت تعتقدين يا شاطرة؟ التحديث هو إذن عملية تطبيق "الحداثة" على أمور الحياة ومجالاتها المادية كافة؛ وأقصد المخترعات التي توظف في الحياة الاجتماعية.

(ضاحكة لقد استدرجتَني وأسقطتَني في الفخ! والآن عليكَ الدخول في التفاصيل والمؤشرات الملموسة. لئن سلّمت معكَ بأن العالم الإسلامي يعيش خارج الحداثة، فهل حدثتني قليلاً عن الأسباب التي تعيقه في الدخول إلى روح العصر وأن يخلق حداثته؟ ما دور الجامعات هناك؟ ألا توجد نخبة؟ ما هو الوضع تحديدا في الجزائر على سبيل المثال؟

سأقرأ على مسامعكِ أولاً ما كتبه الفيلسوف فؤاد زكريا في كتابه "التفكير العلمي"، الصادر سنة 1978. اسمعي ما يقول في مقدمة الكتاب، وربما ستقفين على واحد من التناقضات الفكرية عند عرب اليوم: "إننا لا نكفّ عن الزّهو بماضينا العلمي المجيد، ولكننا في حاضرنا نقاوم العلم أشد مقاومة. بل إن الأشخاص الذين يحرصون على تأكيد الدور الرائد الذي قام به العلماء المسلمون في العصر الزاهي للحضارة الإسلامية هم أنفسهم الذين يحاربون التفكير العلمي في أيامنا هذه. ففي أغلب الأحيان تأتي الدعوة إلى الدفاع عن العناصر اللاعقلية في حياتنا، والهجوم على أية محاولة لإقرار أبسط أصول التفكير المنطقي والعلمي المنظَّم وجعلها أساساً ثابتاً من أسس حياتنا - تأتي هذه الدعوة من أولئك الأشخاص الذين يحرصون، في شتى المناسبات، على التفاخر أمام الغربي - بأن علماء المسلمين سبقوهم إلى كثير من أساليب التفكير والنظريات العلمية التي لم تعرفها أوروبا إلا في وقت متأخر، وما كان لها أن تتوصل إليها لولا الجهود الرائدة للعلم الإسلامي الذي تأثر به الأوروبيون تأثراً لا شك فيه".

وإذا عدتُ إلى سؤالك، ففعلاً، من الناحية الشكلية، كل ما ذكرتِ متوفر ليس في الجزائر فحسب بل في كل بلدان الوطن العربي؛ وإن كان الوضع يختلف من بلد إلى آخر في هذا الأمر أو ذاك. هل تعلمين أن في ترتيب الجامعات في العالم لا نعثر على جامعة عربية واحدة ضمن الـ 500 الأولى!

كيف ذلك؟ هذا أمر غير معقول! بل ومحزن حقاً. وأنتَ ألم تدرس في جامعة جزائرية؟ كيف كانت الأوضاع آنذاك؟

تعرفين أن الجزائر دولة قريبة عهد بالاستقلال، عمرها الآن نصف قرن لا أكثر. إذ استقلت عام 1962 كما لا تعرفين...

أعرف أعرف... دعكَ من اللمز والغمز! أكمل.. كيف كانت الحياة في الجامعة بغض النظر عن حكايات العشق والصديقات والأصدقاء والنكت التي كثيراً ما تجد متعة وأنت تقصها على مسامعنا؟

أعترف بأنني أتلذذ بذلك لأنه يعيدني إلى أيام جميلة وذكريات عزيزة جداً على قلبي...

كفى حنينا إلى ماض لن يعود! كيف كانت الأجواء الجامعية من الناحية العلمية والفكرية، ماذا كانت الأحلام حينها؟ هل كان الهدف هو التقدم، كما كان حال الآخرين عبر العالم في فترة السبعينات، تلك الفترة المجنونة؟

نعم.. وكان الأمر بديهياً جداً، إذ كانت الأغلبية الساحقة من الطلاب مقتنعة بالحل الحداثي العقلاني. وشخصياً حينما كنت أزور فرنسا لم أكن أشعر بفرق شاسع لا يمكن ردمه بين الغرب وبين بلدنا. كان التقدم واللحاق بالدول المتقدمة يبدو لنا مسألة وقت لا أكثر، وكان يخيّل لي شخصياً أن الفرق لا يتعدى مستوى كمٍّ تراكمي فقط.

واليوم يا نوستالجي ويا شبه يائس؟

لا أخفي حنيني، لكنني لست يائساً. تعرفين لماذا يا غالية؟

اشرح من فضلكَ وفسّر، أنا اليوم مستعدة للنقاش أكثر من المرة السابقة. "ازرع ينبت"، كما تحب أن تردد دائماً. هل توقف التطلع إلى اللحاق بركب الحضارة (تضحك ملأ شدقيها)؟

فعلا..

فأنا لا أحب عبارة "اللحاق بركب الحضارة"! كما تشير ضحكتك الساخرة، ولكن لا أنفي مضمون العبارة، إذ كانت جهودا تبذل من أجل الخروج من التخلف سواء في الجزائر أو في غيرها من البلدان العربية. وبغض النظر عن قيمة المشاريع وما تم إنجازه وأسباب ذاك الفشل النسبي هنا والنجاح النسبي هناك، فعلى العموم كان الأمل قائماً لدى غالبية الناس. كان في الجو شعوراً بإمكانية الانتقال إلى مرحلة نوعية من التنمية في مستقبل غير بعيد. آه تذكرت حادثة طريفة في الموضوع ما زلنا نتداولها إلى اليوم.

احكِ احكِ... في بعض الأحيان الحوادث البسيطة هي التي تقرّبنا أكثر من الواقع؟

كنا في السنة أولى جامعي نهاية السبعينيات من القرن الماضي... و كان يدرسنا أستاذ جزائري متفائل جدا

القرن الماضي! تتحدث وكأنك بلغت من العمر عتياً، لم يمر على انتهاء القرن الماضي سوى عشرية ونيف! قل السبعينيات وأفهمُ عفوياً أنها سبعينيات القرن العشرين.

لا أشكو شيخوخة ولا هم يركضون أسرع مني...

آه أنا المذنبة، نعم فهمت! تريد أن تذكرني أنكَ أسرع مني جريا؟ (وتهمين بالمغادرة متصنعة الغضب)

ألا تريدين سماع بقية القصة؟

لولاها لما أكملت معكَ الحديث اليوم، تفضل أكمل.. ما به أستاذكم ؟

في إحدى الحصص قال لنا واثقاً من نفسه وقدراته الاستشرافية إن الجزائر ستخرج من التخلف في حدود سنة 2000! لا أحد كان مستعداً لتصديق ذلك. وبدأ نقاش حامي الوطيس بين الأستاذ ومجموعة من الطلبة، حاول كل واحد منهم أن يقدم الأدلة الدامغة على استحالة ذلك. ولما عجز الأستاذ على إقناع المشككين، نظر إلينا نظرة "وطنية" نزيهة وقال معاتبا بلطف متوجهاً إلى أحد زملائنا: "يا أخي العزيز، لماذا لا تحبون وطنكم؟". وقد ظلت كلماته متداولة بيننا إلى اليوم.

حكاية ممتعة فعلاً، لكن بغض النظر عن طرافتها، لم يكن تفاؤل أستاذكم مجانياً. كان الأمل قائماً كما تقول رغم كل السلبيات، لكن هل يمكن تحديد الفترة التي بدأ الشعور بالإحباط يطفو فيها على السطح؟ وهل وراء ذلك أسباب موضوعية؟

كغيرها من البلدان التي تعتمد بشكل شبه كلي على البترول والغاز، كانت بداية المصاعب في الجزائر مع انخفاض سعر المحروقات، وبالتالي عدم قدرة الدولة على الاستمرار في نهج سياسة الخدمات المجانية والأسعار المدعومة.

وما دخل الأزمة الاقتصادية باكتساح الفكر الأصولي للساحة؟ هل يؤدي الإحباط وانسداد الآفاق إلى العودة إلى الدين؟ هل الدين هو ملاذ المحرومين؟ هل كان ينتظر الناس من الدين حلولاً لمشاكلهم اليومية، أم ماذا؟

صحيح! أنتِ اليوم في يومكِ فعلاً. أسئلتك محددة وتحيط بالمسألة من كل جوانبها. ولكن لا يمكن أن نتطرق للموضوع في كل تفاصيله، لأن ذلك سيأخذ منا وقتاً طويلاً، فضلاً على أنه مشروح بدقة في كثير من المؤلفات. سنكتفي بالقول إن الحركات الإسلامية استغلت الفراغ السياسي وحولت اهتمامات الناس الدينية في البداية إلى عمل سياسي احتجاجي.

ولكن لماذا لم يفعل الآخرون نفس الشيء؟

آه كنتُ أنتظرها هذه! أتعرفين لماذا؟ لأن الناس حينما أُغلِقت أبواب التعبير والتجمع في وجوههم، حوّلوا المساجد إلى أماكن للتجمع الاحتجاجي ومنابر للتعبير السياسي. فتحوّل الجامع، مع مرور الزمن واستمرار القمع والتضييق على العمل السياسي العادي، من مكان للتعبّد إلى مكان لممارسة السياسة. أو لِنقل أصبح أهم مركز لمقاومة الأنظمة القائمة. وطبعاً دون نسيان أحزاب سياسية يمينية ويسارية وشخصيات معارضة ليبرالية كانت تنشط في سرية وشبه سرية أحياناً. وقد نجح الإسلاميون في استقطاب الرأي العام لتوفر منابر مجانية لهم على طول الوطن العربي، هذا على الرغم أيضاً من أن الإسلاميين لم يسلموا من المراقبة الصارمة أحياناً والتساهل معهم في أحيان كثيرة من طرف الأنظمة، وكان الهدف هو ضرب الحركات اليسارية والديمقراطية بالأصولية الإسلامية.

آه.. قد قلتَ مرة إن الأنظمة في العالم العربي قد حدث لها ما حدث للدكتور فرانكشتاين، ذلك الذي خَلق مارداً ثم لم يستطع السيطرة عليه!

بالضبط يا عزيزتي، وأنا سعيد جداً أن ثرثرتنا المستمرة منذ أن كنت صغيرة لم تذهب سدى. لكن يجب أن نضيف أيضاً أن ما هو مارد اليوم قد كان هيولى منذ بداية الإسلام، وقد بدأ في التكون في

شكله الحالي في النصف الثاني من القرن الماضي؛ وهو ما يسمى الحركة السلفية. لكن إذ عدتِ إلى حالة الجزائر، فوصفكِ يعبّر عن الوضع الذي كان قائماً ولا زال. أتذكّر أنني قلت لك أيضاً إن النظام في الجزائر تحديداً قد "ربى الثعبان في برنوسه"؛ وهو تعبير شعبي جزائري يؤدي نفس معنى مخلوق فرانكشتاين.

ها أنا قد فهمت مصدر الأصولية! هي بنت فقر وبؤس إذن؟

لا.. لم أقل هذا أبداً، فالأمور ليست بهذه البساطة، بل قلتُ إن ظروف المعيشة السيئة كانت سبباً في إنعاشها في بعض البلدان وتجذيرها في بلدان أخرى. المسألة أعقد من ذلك، فنحن نرى أصولية متشددة في بلدان غنية مثلاً. وليس هذا فحسب، بل عرفنا أصوليين إرهابيين أغنياء ومتعلمين تعليماً عالياً.

كابن لادن مثلا؟

أحسنتِ، وكذلك نائبه الظواهري الذي درس الطب. وغيرهما آلاف. فلا الغنى ولا الدراسة كفيلان بتلقيح الإنسان ضد الأصولية يا عزيزتي.

هل تنزل الأصولية من السماء؟ هل يحمل البعض جينات التطرف الديني أم ماذا؟ لا تقل لي مِن فضلك أنك تقصد ذلك، لأنني لا يمكن أن أصدّق أبداً رأياً مثل هذا، يُجوهر الأفراد! وهذا يتناقض تماماً مع كل ما تعلمته معكَ وفي المدرسة ومن قراءاتي.

أنا فخور بتعليقكِ وحزين في نفس الوقت!

عفواً لم أقصد.. ولكن تلك هي قناعتي. لكن وضّح أكثر يا أيها الفخور الحزين (تضحكين في محاولة التخفيف عني)؟

رؤيتُك صائبة فيما يخص عدم النظر إلى الأصولية على أنها محايثة للعرب والمسلمين، وأنا فخور بنظرتكِ الموضوعية للمسألة، أما ما كاد يحزنني فهو شكّي في أنكِ ربما فكّرت بأنني أنظر إلى الإسلاموية على أنها محفورة في جينات الأفراد المؤمنين بالإسلام.

(تضحكين كعادتك) دعنا من العواطف، كدتَ أن تُسقط بعضا من دمعي. هل تظن لحظة واحدة أن يخالجني شك كهذا. ألم نتفق على طرح كل الأسئلة حتى غير المعقولة كي يسهل التحليل ويحلو الحديث؟

بلى يا عفريتة!

طيب يا سيدي، فسّر لي ما كتبتَ يوماً – أو ما معناه – أن الأصولية في الجزائر كانت حتمية وكان من غير الممكن تحاشيها؟

لم أكن أقصد أنها كانت قدراً، وإنما حاولت أن أشير إلى العوامل والظروف التي عجّلت بظهورها بتلك القوة والعنف والهمجية.

عنف، همجية! ألست قاسيا جدا هنا؟

وهل تعلمين يا "رحيمة" أن الأصولية قد حصدتْ أرواحَ أكثر من مئتي ألف جزائري، أو على الأقل بسببها، ولا زالت الضحايا تسقط كل يوم، مع أن الأصولية قد وصلت إلى نهايتها العسكرية اليوم؟

أنا سعيدةٌ بسقوطها العسكري، أليس الأمر إيذاناً بنهايتها المحتومة على كل صعيد؟

لا مع الأسف، الأمر أكثر تعقيداً من ذلك يا عزيزتي، وربما نعود لذلك في الأيام المقبلة. لكن دعينا نتحدث اليوم عما طرحتِ في سؤالك حول الأصولية في الجزائر كمثال على كيفية نشوئها وصعودها.

أنا في أحرّ الشوق إلى ذلك، كيف بدأ الطاعون الأصولي في بلدي الأصلي إذن؟ كيف اختفى ذاك الإسلام الشعبي الذي كان يحياه أجدادي؟ أنا كلي آذان صاغية!

إذن فاسمعي وعِ؟ (ونضحك في نفس الوقت...)

كان أغلب الجزائريين يا عزيزتي وحتى أواخر الثمانينيات من القرن المنصرم حداثيين، بل براغماتيين في سلوكاتهم وتصوّراتهم وأحلامهم إلى حدّ بعيد.

نعم نعم؟ لا أكاد أصدقك. وماذا حدث لهم إذن؟

كانت الحداثة بمثابة غنيمة حرب، عاشوها تلقائيا كـ"حداثة لاواعية". كانوا يتبعون حسّهم الطّبيعي السليم. وذلك لسبب بسيط يتلخّص في أنهم لم يكونوا مطّلعين بعمق على أوامر دينهم ونواهيه. بعبارةٍ أخرى لم يكن لهم علاقة مباشرةٌ بذلك "الإسلام العالم"..

عذرا أقاطعكَ ماذا تعني بـ"الإسلام العالِم"

اصبري لو فعلتِ لجاءك الجواب لتوه..

أقصد "إسلام الفقه التوتاليتاري". كان لأجدادكِ إسلامهم الخاصّ، غير المتعالم ، ذلك الإسلام الشعبيّ الفولكلوريّ المتوارث شفاهياً.

وبعد...

ولكن مع تعميم التعليم، ابتداء من فجر الاستقلال، التقى جيل ما بعد الاستعمار مع الإسلام النصّي العالِم، فأحدث اللقاء أزمة هويّة قويّة، أدّت بدورها إلى خلق رغبة جامحة في إعادةٌ أسلمة الحياةٌ. وهو ما عُرف بالصحوةٌ الإسلامية المسكونة بعُصاب الالتصاق بالنصوص والاقتراب أكثر فأكثر من ذلك النظام الحياتيّ الذي تُبشّر به المدرسة، وتدّرسه على أنّه هو المثال والبديل للنظام الشيوعيّ المادّي وللنظام الرأسمالي الظالم.

تقول بأن الأصولية كانت تُدرَّس في المدارس الرسمية؟

ولا زالت يا عزيزتي. وليس في الجزائر فحسب بل في كل البلدان العربية، ما عدا تونس التي تحيين شواطئها وياسمينها.

أتعرفين لماذا يتمرد بعض الشبان ويلتحقون بالأصولية؟

نعم لأسباب متعددةٌ كما سبق وأن شرحتَ لي.

وأهمها تمردهم على الحاضر باسم الماضي المؤمثل، الذي تعلموا التعلق به في المدرسة. فهم يعادون حاضرهم الذي لا يتطابق مع الوعي الديني الظلامي الذي طعّمتهم به المدرسة. وهكذا يصبحون أصوليين يرفضون مجتمعهم الفعلي باسم مجتمع خيالي وهمي لم يوجد قط في التاريخ. ولكن المدرسة هي التي زرعته في أدمغتهم وأوهمتهم بإمكانية العودة إلى ذلك الماضي المحلوم به. وكما هو معروف يا عزيزتي تؤدي مثلنة الماضي في كل الأحوال إلى خلق شعور دائم بالدونية.

أطالب بأمثلة دقيقة.

كان كتاب الفلسفة الرسميّ الذي درسناه كمقرَّر لطلاب البكالوريا يقدِّم النظام الرأسمالي كأطروحة والنظام الشيوعيّ كنقيض لها، ويأتي النظام الإسلاميّ كتركيب أبديّ، يجمع بين محاسن الأوّل والثاني ويتجنب مساوئ الاثنين معاً. وهكذا يُوقَف الديالكتيك نهائياً بعدما قُلب رأسا على عقب.

وهل اعتمدت هذا التركيب العجيب يا أستاذ الفلسفة سابقا؟

لا.. أبداً ولم أكن الوحيد الذي لم يدخل في هذا التلفيق. ولا تنسي يا عزيزتي أن عمري لم يكن حينها قد تجاوز 25 سنة بعد.

هذا في مادّة الفلسفة. أمّا في غيرها من المواد فلا حديث إلا على الشريعة والتمكين لها وممارسة الضغط على الفتيات ليدفنّ أنفسهن تحت حجاب وجلباب. وهكذا بدأت الجزائريات يسدلن الظلام على الضياء كما يقول أبو نواس. وفي أقلّ من عقدين من السنوات غاب صبحهنّ تحت ليل.

القول جيد، وإن كان المضمون محزناً حقاً! ولكن أين تَمظهَر التغيّر؟ هل كان مرئياً، بغض النظر عن انتشار الحجاب بين النساء؟

غرق ذكور الجزائر في توقير زائد لشيوخ الدين، وأصبحوا يتسولون الفتوى من كلّ دجال درويش. وانتشرت بينهم بدع في الهيئة والهندام تدلّ على خلخلة قد مَسّت المجتمع الجزائريّ في عمقه وعلى تشظٍّ في الشخصية الجزائرية يظهر في صورة انتماء الناس إلى عدة عصور متباعدة عن بعضها في آن. فتري فوق الجسد الواحد عباءة تقليدية وتحتها سروال جينز، وفي الرِّجلين حذاء رياضة من آخر الصيحات... وتري إيماناً بالطبّ الحديث والعلم بالترافق مع إيمان بالرقية الشرعية والجنّ والعفاريت المذكورة في القرآن مِن قبل أطبّاء وصيادلة؛ كما رأينا في كثير من برامج الكاميرا المخفية، المضحكة-المبكية...

لكن كيف يمكن أن يحدث انقلاب بهذا الشكل؟

إليكِ مثال طريف: في السبعينات كان الصائمون أقلّية بين عمّال أسبوعية شهيرة في الجزائر، وكانوا يتظاهرون بعدم الصوم خوفاً من تهكّمات زملائهم. ولكن في الثمانينات أصبح المفطرون أقلّية يدخّنون سجائرهم في سرية خوفاً من هراوات زملائهم...

صورة جيدة... لكن هل تريد أن تقول إن الأصولية هي ثمرة انتشار الثقافة والتعليم وليس العكس؟

نعم هي كذلك. إذ الذين يريدون تأبيد المؤقّت، المتباكون على ذلك الزمن الذي كان فيه الجزائريّ متصالحاً مع إسلامه الفلكلوريّ المطعَّم أصلاً بمكتسبات الحداثة التي ورثها من العهد الاستعماري،

يتناسون أنّ الجزائري كان كذلك لأنّه كان بعيدا عن الإسلام الحقيقيّ، وكان حتميا أن يتمّ اللقاء بينه وبين ذاك الإسلام المكتوب. وحينما التقى به رفض الحداثة لأنّه وعى أنّها مناقضة له. وهو محقّ في ذلك. فتعاليم الإسلام تتعارض جليّاً مع أهداف الحداثة، وهو أمر طبيعيّ يفسّره البَون الزمنيّ الشاسع الذي يفصل بينهما.

واصل.. واصل.. بدأت أدخل في منطق تفسيراتك؟

وهكذا عاد الحداثيون الجزائريون الواعون بحداثتهم إلى مكانهم الطبيعي. فأصبحوا هامشيين كما كان المعرّي وأبو نواس والحلاج وعمر الخيام، وغيرهم في زمن ما نسمّيه حضارة عربية إسلامية.

فلماذا نستعمل كلمة أصولية إذن؟ نحن نعيش عودة عامّة إلى "الإسلام العالِم" الأصيل في كافة أنحاء العالَم الإسلاميّ. هي عودة إلى منابع الإسلام: القرآن والسنة والفقهاء.

إذا كان الأمر كذلك، فما هو الفرق بين مسلم راديكاليّ ومسلم معتدل إذن؟

الراديكاليّ هو ذاك الذي يعود إلى أصول الإسلام، إلى أسسه وتعاليمه الصافية. والمعتدل هو من يبتعد عن ذلك مهما كانت درجة ذلك الابتعاد. الإسلام عقيدة إيمانية ومشروع مجتمع في نفس الوقت، فمن الصعوبة بمكان الفصل بين هذا وذاك. فالقول باضمحلال الأسلمة أو الأصولية تلازماً مع التقدّم الثقافي وانتشار التعليم لا معنى له البتّة، حتى لو رفعه البعض شعاراً، مدّعين أنّ الإسلام لم يقم بثورته العلمانية بعدُ وأنّ الحلّ كامن وراء التقدّم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

ولماذا لا يكون الأمر كذلك يا سيدي؟

وأنا أسألكِ بدوري يا سيدتي: هل تَعلمَنَ مسلمو الغرب الذين يعيشون بعيداً عن التخلّف الاقتصادي والثقافي والاجتماعيّ؟ وهل منع الرفاه في بلدان الخليج من السقوط في أحضان الأصولية؟ لكن السؤال المغيّب باستمرار هو: لماذا لم يأخذ الإحباط الاجتماعي المتراكم في البلدان العربية شكلاً آخر من التعبير غير الاحتجاج الديني؟

ذلك هو السؤال الذي أريد طرحه عليكَ بشكل مباشر مستقبلاً، ولو أنك قدمتَ لي بعض عناصر إجابة في الدردشات السابقة. ولكن عودة إلى ما نحن بصدده: ألا توجد محاولات جدية مِن لدن بعض المسلمين في أوروبا لإيجاد تسوية معينة بين الروحي والدنيوي؟

فعلاً، ولكن تبقى في رأيي شكلية ودون جدوى. فمثلاً في كتابه "إسلام بلا خضوع. من أجل وجودية إسلامية"[1] يذهب عبد النور بيدار بعيداً في إعادة قراءة النصوص، بل واجتهد حتى في نسخ بعضها تماماً. وهو من الذين يدعون ويؤمنون بإمكانية عصرنة الإسلام ليتماشى مع العصر وليخرج المسلم من الخضوع للنص والتعاليم التي لم تعد عقلانية. ولكنه ينسى أنّ الإسلام هو أوّلاً وقبل كلّ شيء "التسليم والخضوع لإرادة الله". لا يمكن أن نوفّق بين الإسلام والعصر دون المسّ بلبّ الإسلام

[1] Abdennour Bidar, l'Islam sans soumission. Pour un existentialisme musulman. Albin Michel, 2008

ذاته، وهو أمر لا يقبله مسلم قط. لا يستطيع الفكر الإسلامي أن يتجدد من الداخل لأنه أعطى كل ما يملك وما يستطيع، وهو اليوم في حالة محاولة للبقاء لا أكثر ولا أقل.

وما هو تعليل ذلك؟

ينظر أغلب المسلمين إلى دينهم على أنه منظومة فكرية وعملية شمولية، يجب أن تترتب على ضوئها حياتهم العامة والخاصة. أي أن تتحوّل الأغلبية الدينية إلى أغلبية سياسية. وهو ما انتبهت إليه وغذّته الأحزاب الإسلامية واستثمرته في صراعها الانتخابوي مع السلطات القائمة، واعدةً الناس بأنّها الوحيدةُ القادرةُ على تخليص مواطنيها المسلمين من تلك السلطات بطرق سلمية ديمقراطية، بعدما فشلت عن طريق العنف.

أوَليس ذلك مفيداً وبداية لإصلاح ما، قد يُنجب ديمقراطية حقيقية مستقبلا؟

إن خلّصَنا الإسلاميّون من النظام القائم المنبوذ فمَن يخلّصنا من الإسلاميين؟ تلك هي المعضلة! ألا يعتبرون الديمقراطية كسفن طارق بن زياد التي كان لا بدّ من إحراقها حين وصلت إسبانيا حتى لا يفكّر أحد باستخدامها ثانية، على حدّ تعبير أحد النقاد.

ما هو المخرج إذن؟ بدأت أشعر باليأس، هل هناك تفكير آخر يمكن أن يُخرِج المسلمين من هذا المأزق؟

في بداية تسعينات القرن الماضي، وفي عزّ الأزمة الجزائرية بالذات، وفي غمرة احتدام الصراع بين أنصار توقيف المسار الانتخابي، تجنباً لاستيلاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ على الحكم، وأنصار الذهاب إلى الدور الثاني، رغم احتمال فوز الحزب الأصولي فوزاً ساحقاً، قدّم عالِم الاجتماع الجزائري "الهواري عدي" نظرية جريئة وطريفة تحت عنوان "الارتداد الخصب".

ارتداد خصب! إنه لأمر طريف حقا، وما محتواه؟

رأى عالم الإجماع الجزائري هواري عدي أنّ أحسن طريقة يتفطّن بها الجزائريون إلى هشاشة الخطاب الدينيّ ولا واقعيته هو تجريب حكم الإسلاميين بشكل مباشر. وهو ما يلخّصه لنا الفيلسوف الإيرانيّ داريوش شايغان: "لقد حققنا، نحن الإيرانيون، كلّ فانتازماتنا العتيقة، وقد أهّلَنا هذا التطهير أو التنفيس الجماعيّ غير المسبوق أن نفهم اليوم عدم جدوى الأحلام غير القابلة للتحقيق، وأن نعي كذلك أن كل دعوة للرجوع إلى الخلف هي ضد مستقبلنا، بل هي فخ منصوب للمغفلين. بشكل من الأشكال، نحن في مرحلة متقدمة عن بقية البلدان الإسلامية إذ ما زال أهل تلك البلدان يحلمون بالانزلاق. لنقل إننا بدأنا نلمح شعاع الشمس الذي يخرجنا من النفق المظلم بينما هم يحاولون الدخول".

والسؤال يا عزيزتي: هل ندخل الدهليز ونجرّب ما جربه الإيرانيون مدةَ ثلاثين سنة، لننتبه بعد فوات الأوان أنّ حلم الدولة الإسلامية المثالية كان مجرّد وهم، وأنّ سفن طارق بن زياد قد شبعت نارا؟

لنعد إلى مسلمي الغرب، ألم يتأثروا بمحيطهم الحداثي، ألم يتجاوزوا بعض المعيقات التي قد تضعها معتقداتهم الدينية أمام انخراطهم في المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها؟ ألا تمنحهم الحرية

في الغرب على الأقل التوفيق بين الإسلام والحداثة: دينهم ودنياهم؟ أم ستخرج لي مرة أخرى حكاية الخطين المتوازيين؟

يمكن أن يلفق ملفق شيئاً من هذا القبيل، وهي فكرة غالبة لدى المسلمين. لكن الحداثة مختلفة اختلافاً جوهرياً عن الإسلام لمن يريد أن يرى الاختلاف. فحسب النظرة الإسلامية يتصرّف الإنسان تحت رقابة الله، والله هو الذي يضمن له حريته، أو على الأقلّ هو الرّاعي الأوّل لها. أمّا في الحداثة فالكائن البشريّ ذاته هو الذي يُعتبر القيمة المطلقة في الكون، فلا يعتمد سوى على عقله باستعمال فكره النقديّ وتحمّل مسؤوليته الفردية. فهل يشجّع الفقه الإسلاميّ على استعمال العقل وممارسة حرّية الفكر وتحمّل المسؤولية؟ هل يتقبّل الفكر الإسلاميّ في عمومه ركائز الحداثة الأساسية؟

لا تنتظر مني إجابة، فصّل؟

من يتولّى مسؤولية الحكم في الإسلام ليس مسؤولا أمام الشعب بل هو مسؤول أمام الله. فليس للشعب المسلم حقّ رفض الشريعة؛ ولا أحد من الحكّام العرب تجرّأ على إعادة النظر فيها صراحة. لا يمكن الذهاب بعيدا في التساؤل عن مدى توافق الفكر الإسلاميّ والديمقراطية، فهي تناقضه ابتداء منذ اللفظ: ديمكراتوس، "حكم الشعب". في الإسلام لا يعود الحكم إلى الشعب وإنّما لله. فلا يستطيع الناس التصويت من أجل تحريم ما حلّل الله، ولا تحليل ما حرّمه. وهو ما حدث في مسألة المآذن في سويسرا، إذ أراد القوم فرض إرادة سمائهم على السويسريين!

إذن تقول لا معنى للاقتراع العام؟

دولة "إسلامية من غير انتخابات" و"الديمقراطية كفر"، تلك كانت شعارات جبهة الإنقاذ الجزائرية المحظورة ولا زالت. وهي شعارات مؤسّسة إسلامياً وليست شعارات متطرّفة كما يدّعي المحللون وأغلبية الذين لا يريدون النظر إلى الواقع كما هو.

هات أمثلة؟

في فرنسا، وفي مدينة بوردو بالذات، عارضت القنصلية المغربية تحريق أو ترميد جسد أحد الفرنسيين من أصل مغربيّ كان قد أوصى بذلك في حياته. وتحت ضغوط الإسلاميين، وحتى بعض الدول الإسلامية، تنازلت السلطات العمومية الفرنسية، تجنّباً للقلاقل، لهذا المنطق الفئويّ العصبويّ على حساب الضمير الفرديّ. ذاك المنطق الذي لا يَعتبر الفرد مِلكاً لنفسه بل كـ"شيء" تابع لقبيلة هي المؤهّلة لتقوم في مكانه بتحديد معتقداته الشخصية. وعلى نفس الوزن والمعنى يصرّح إمام جامع مدينة لِيل الفرنسية ورئيس رابطة الشمال الإسلامية: "لا يوجد مفهوم المواطنة في الإسلام. ولكن المجموعة أو الطائفة مهمّة جدّاً. إذ الاعتراف بمجموعة، هو اعتراف بالقوانين التي تحكمها".

وكيف يعيش المسلمون حياتهم في الغرب؟

يجد المسلم نفسه في أرض الحداثة تائها ينشد الانعزال. ففي داخل كلّ مسلم يعيش في الغرب تلتهب شبه حرب أهلية، بل صراع حضارات بين إيمانه والحداثة التي تهيمن على محيطه وتغزوه في عقر داره. لا يكترث الناس بما يقوله القانون بل بما يقوله الشرع. فنرى أن عدد الاستشارات الفقهيّة

يفوق بأضعاف عدد الاستشارات القانونية في بلدان القانون. ستصابين بالذهول لو اطلعت على عدد الفتاوى المقدَّمة وفحواها عبر العالَم الإسلامي كل يوم.

وما الغرض منها؟

فتاوى من أجل البقاء داخل القالب الإسلامي. لأنّ المسلم يريد أن يكون مؤمناً مثالياً، يتطابق سلوكه مع ما يأمر به الشرع. لذلك فهو يريد أن يطّلع على كل كبيرة وصغيرة ليدخل في الصف أو يبقى في القفص الفقهي حتى لا يسهو ويُغضِب الله. هل تجوز الصلاة في الفضاء وكيف نتعرّف على جهة القبلة هناك؟ هل يجوز للمرأة تكحيل عينيها وهي صائمة؟ وهل مهنة طبّ النساء جائزة للرجال؟ والمسابح المختلطة حرام ارتيادها أم حلال؟

أسئلة غريبة حقا؟

وهل تعرفين يا عزيزتي أن في كل يوم تشرق فيه الشمس على مصر تُصدر دار الإفتاء أكثر من 1000 فتوى عبر الهاتف، وفي أربع لغات، فضلا عن 500 أخرى يتمّ تقديمها مباشرة للمؤمنين الذين يقصدون الدار طلباً للرأي والفتوى، كما يقول مقدّم برنامج "فتاوى" على قناة "الحوار" اللندنية. يتعجّب من يسمع أسئلة مشاهدين واردة من باريس ولندن ولوزان وروما و...، ويصاب بالغثيان إن استجمع قواه وصبر حتى سماع ردود جلالة المفتي القروسطية.

أراكَ مُصرّاً على الخطين المتوازيين؟

ليس إصراراً مني بل واقعاً عيانياً. الحداثة مقارَبة جديدة للإنسانية، في قلبها الفرد والحرية والاستقلالية. لذلك فالتناقض بينها وبين الإسلام ليس حادثاً عابراً فحسب، وإنما هو نتيجة حتمية يعود إلى منطقهما الداخلي الهيكلي. وحتماً سيتصارعان؛ بل لا مجال لتعايشهما، كما سبق أن رأينا في سويسرا وغيرها. كانت بريطانيا مثلاً أرض ميعاد للأصوليين، واليوم يحاولون أسلمتها بعدما استقرّت أقدامهم وأصبحوا بالتجنس فيها مواطنين. ها هو شهيب حسن، الناطق الرسمي للمجلس الإسلامي في بريطانيا، يدعو الإنجليز إلى استبدال نظامهم السياسي الديمقراطي العريق بالدولة الإسلامية: "إذا طبّقتم الشريعة، تستطيعون تحويل هذا البلد إلى حديقة سلم، إذ إذا تمّ قطع يد سارق فلا أحد يتجرّأ على السرقة إطلاقاً، وإذا رُجم زانٍ مرّة واحدة فلا أحد يرتكب جريمة الزنى أبداً. إنْ قبل المجتمع البريطاني بالشريعة فهذا يعود عليه بفوائد جمّة". ها هو يحاول إعادة توصيف الحبّ إلى زنى، جاهلاً أن أوروبا هي اليوم في مرحلة "ما بعد الزواج" والحبّ الجنسيّ.

وما هي ردود المجتمعات الغربية أمام هذا الأمر؟

بدأت الضغوط تأتي أُكلها، ففي 12 يناير-كانون ثاني 2007 رفضت قاضية ألمانية طلب طلاق تقدّمت به ألمانية من أصل مغربي بدعوى أنّ زوجها المسلم يضربها، وقد برّرت القاضية رفضها قبول الدعوى بحجّة أنّ القرآن يجيز للزوج ضرب زوجته. وهذا ما بدأ ينحو نحوه كثير من الأوروبيين والكنديين، وهو ما أصبح يُعرف بـ"التسوية المعقولة". ففي امستردام وُزّعت نسخ القرآن على موظفي الشرطة ليفهموا ويتفهّموا ثقافة المسلمين أكثر!

تخرج الحقيقة أحياناً مِن أفواه شيوخ الدين، فالإسلام ليس مُلكاً للمسلمين يفعلون به ما شاؤوا، وإنّما الإسلام هو الذي يملكهم، هكذا يقولون. لقد تمّ طرد إمام مسجد روان بفرنسا لأنه عقد زواجاً مختلطاً، وخطب بالفرنسية في صلاة جمعة، فاعتُبر فعله بدعة وضلالة.

تريد أن تصل إلى القول إن الثقافة الإسلامية التقليدية لا تتناسب مع الحياة الحديثة التي يحياها المسلمون في الغرب؟

بالضبط! إن يرغب المرء في عيش إسلامه في الغرب كما يعيش في بلد إسلاميّ، فإن مشاكله تتضاعف إلى ما لا نهاية. فمثلاً بدل أن يبحث عن عمل فقط، فإن عليه أن يبحث عن عمل لا يُغضب الله أيضاً. وبدل أن يأكل لقمة أو قطعة لحم ويمضي بسرعة كما يفعل الآخرون، فإنه مضطر للبحث عن المذبوح الحلال... وهكذا.

أعرف أن المسلمين الذين يعيشون في الغرب أو خارج الغرب لا يرفضون منتجات الحضارة التقنية، ولكن بصورة عامة كيف ينظرون إلى الحداثة؟ وهل هناك صراع حضاري بين الإسلام والغرب؟

تتكامل الحضارات ولا تتصارع، فإذا كان هناك صدام ما في العالم العربي الإسلامي، فهو ليس بين الإسلام والغرب، بل هو صراع بين البربرية والمدنية، بين العائلة التي تتقدّم والعائلة التي تتأخر، كما كان يقول الروائيّ الجزائريّ المقتول "الطاهر جاعوط".

كيف؟

يمكن الحديث عن غيظ أو حقد وحتى عن غيرة تجاه الغرب، أمّا اجترار كلام عن احتمال تصادم حضاريّ بين الإسلام والغرب فهو من باب الإنشاء، لأنّ ذلك التعارض الموهوم إسلام/غرب، الذي يثقل المخيّلة الإسلامية، ما هو في حقيقة الأمر سوى وهم مصطنع يبتغى منه دغدغة ضمائر الوعي الشقيّ المصدومة بضربات الحداثة الموجعة. إنه ردّ فعل سحري ضدّ تفوّق الغرب الذي يحقق الانتصار المدوّي تلو الآخر، في كل ميادين الحياة.

ما معنى هذا الرفض للغرب إذن؟

هو تبرير لعجز المؤمنين المريع وتراوحهم في مكانهم منذ قرون عديدة. فهل يمثّل الإسلام بديلاً للغرب في المستقبل؟ نعم، تردّد العامة وتجاريها الخاصّة.

ربما يسلك المسلمون طريق آخر نحو الحداثة؟

أعتقد أنّ الطرق لا تؤدّي كلها إلى اللحاق بركب الحضارة، كما تقول العبارة الصدئة التي أشرتِ إليها سابقاً. فطُرق الحداثة ليست عديدة. إنّها غربية، شئنا أم أبينا. والغرب ليس تشكيلة ثقافية عادية فحسب، وإنما هو الزمكان الذي طغى عليه استعمال العقل أكثر من أيّ زمكان آخر. وذلك لأسباب موضوعية جعلت أوروبا تصل إلى شيء فريد لم تصله الحضارات الأخرى: الديمقراطية، الفردية، الحب العذري...، قيم متفرقة كوّنت في النهاية كلاً متناسقاً يمكن أن نطلق عليه "عقلية غربية". ولم يكن ذلك ممكناً بمعزل عن تطور الرأسمالية التي استطاعت عن طريق روح المؤسسة الاقتصادية أن تفصل الفرد وتبعده عن علاقاته التقليدية، كما أوضح لنا ذلك ماكس فيبر وكارل ماركس.

لكن لماذا تضع النُّخب العربية والمسلمة الغرب دوماً في قفص الاتهام؟

إنه تبرير للفشل المتتالي وللخيبات المنتظَرة. فهؤلاء يعوّضون حرمانهم بمعاداة مَرَضية لقيم الحداثة الذهنية والرمزية، التي هي في سيكولوجيتهم ليست متناقضة مع التقاليد الإسلامية فحسب، وإنما هي في حرب صليبية ضد كل ما هو إسلامي.

وماذا عن الحجاب هنا في فرنسا؟

هل قرأتِ "ماذا يخفي الحجاب"؟

ذاك الكتاب الصادر عن منشورات "ريبوست لاييك"[1]، أو الرد العلماني. لا لم أطّلع عليه بعد ولا أظنني قادرة على قراءة 400 صفحة في موضوع الحجاب. ألا تظن بأنه هدر للوقت؟

معكِ حق، لا يستحق الموضوع كل ذلك العناء. ولكن اقرئي على الأقل ما ترينه جديراً بالقراءة لتُكوّني صورة عامة عن معركة الحجاب في فرنسا. ونعود لدردشتنا في نهاية الأسبوع إذا كانت لديك رغبة في مواصلة الحوار؟

❖❖❖

أسبوعان بعد..

تأتين حاملة المسجلة باليمنى وتمسكين "ماذا يخفي الحجاب؟" باليسرى، وكلكِ نشاط وابتسام...

متأكد من أنكِ قرأتِ كل الكتاب؟

تقريباً ولخصتُ في هذه الوريقات ما قرأتُ من صفحات.

ذكّريني، قرأتُه ونسيتُ ما جاء فيه..

ما شدني هو شهادات الأساتذة والإداريين التربويين الذين قاوموا أُولى محاولات اختراق الأصوليين للمجال المدرسي الفرنسي، بمعية كثير من النشطاء والمثقفين الذين ما زالوا واقفين بالمرصاد لجنون الأصوليين.

هلّا رسمتِ الخطوط العريضة للمؤلف؟

يستعرض كلّ حيثيات استعمال عرّابي الأسلمة لتلميذات من أصول إسلامية من 1989 وإلى 2009 بغية افتكاك حقّ ارتداء الحجاب في المدارس والثانويات، بادئ ذي بدء، ثمّ الانتقال إلى ما هو أوسع وأشمل عند تأكّدهم من ضعف أسوار المؤسّسات الجمهورية وتهاونها في مقاومة مشروعهم الظلامي.

يحكي الكتاب كل الحكاية. يسترجع كل النضالات، ويُذكّر بخيانات السياسيين وجبن بعض المثقفين وقصر نظرهم. يحكي لنا أساتذة في ثانوية "ڤ‌اندوم" عن تجربتهم المُرّة مع الحجاب سنة 1993، ويسردون المقاومة البطولية للأساتذة العلمانيين في محيطٍ كان في ذلك الوقت غافلاً، غير مدرك لأخطار الأصولية وتكتيكاتها وأهدافها الإستراتيجية. نقرأ عن وزارة تربية فرنسية ضائعة في حسابات سياسوية ومزايداتية، وعن أصولية منظَّمة الصفوف تتستر تحت يافطة حرية الفرد.

[1] Les dessous du voile, 1989-2009: vingt ans d'offensive islamique contre la république laïque, éd. Riposte Laïque. 2009

نقرأ عن الكيفية التي انطلت بها هذه الأزعومة على كثير من الفرنسيين آنذاك، على مختلف مشاربهم السياسية والفلسفية. ويحكي أساتذة آخرون عن محاولات حجابية عنيفة أخرى في "فلير" سنة 1999، و"ليون" سنة 2003، فضلاً عن أمّ المعارك الأولى سنة 1989 في مدينة "كراي" التي أظهرت أنّ الإسلام قد بات معضلة في بلد ڤولتير.

نخرج من قراءة الشهادات بأنّ قانون 2004 المانع للرموز الدينية الظاهرة لم يأتِ صدفة ولا تقييداً لحرية المسلمين الدينية، كما يكذب الإعلام العربيّ المتأسلم المجترّ لكلمة إسلاموفوبيا، وإنما فرضته هجمات الأصوليين واستماتة المناضلين العلمانيين، وردّ فعلهم البطولي، دفاعاً عن حرمة المدرسة وضرورة بقائها مكاناً حراً بعيداً عن مخالب المتدينين ومفاهيمهم المتخلفة للإنسان والكون. مروجو الإسلاموفوبيا هم عالم-ثالثيون جُدد، لكنهم في مستوى تلك السطحية التي تؤدي إلى التسامح مع الأديان المسماة "أديان الفقراء"، وهو ما لا تسمح به أبداً حينما يتعلق الأمر بالأديان الأخرى..

انتظري قليلاً، هذا الكلام سمعته! لكن واصلي القراءة...

نقرأ عمّا يجري في مدينة مرسيليا من اعتداءات على القيم الجمهورية، وكيف انتشرت الأحجبة والبوركات، وقريباً البوركيني على الشواطئ. يفضح المتدخّلون مواقف اليمين واليسار المتخاذلة وزبانيتهم الانتخابوية التي تهدم صرح العلمانية، ولا تخدم سوى الإسلاميين في نهاية المطاف. وبدون حذلقة تربط مقاربة من مقاربات الكتاب بين الهجرة المتعاظمة وصعود الأصولية في فرنسا، وتبيّن كيف يعمل النظام الرأسمالي على استغلال المغتربين واستعمالهم في حربه ضدّ المكاسب الاجتماعية، بغية القضاء على التضامن الاجتماعي، وهدم الفضاء المجتمعي العلماني الوحيد الذي يجمع بين الناس، واستبداله بالنظام الإنجلوساكسوني المرتكز على التعدّد الإثني الثقافي الموصل حتما إلى سياسة الغيتو...

غريب، قرأتُ هذا في مكان ما...

(تضحكين) كثيرة هي الأشياء التي يخيل لنا أننا رأيناها سابقاً، وكثيرة هي الأحاديث التي يبدو لنا أننا لا نعيشها لأول مرة.

ممكن جداً واصلي.

يعود بنا الكتاب في أحد فصوله إلى جذر المشكلة، مستعرضاً علاقة الإسلام بالدولة الفرنسية منذ نابليون إلى اليوم، موضّحاً كيف تعاملت السلطات الفرنسية بطريقة غير ذكيّة مع الإسلام، بل يحمّلها الكاتب مسؤولية عدم تحرّره من لاهوته.

دفاعاً عن العلمانية وقيم الجمهورية، لم يهادن النص أحداً، ولم يكترث كاتبوه بالنعوت الجاهزة ولا بالمحاكمات القضائية التي قد تتهاطل عليهم. لقد ندّدوا بتواطؤ المثقفين ونشطاء العولمة البديلة والتطرّف اليساريّ واليميني والخُضر مع الفاشية الخضراء. وندّدوا بتخاذل الطبقة السياسية الكلاسيكية وأحزابها أمام المدّ الإسلامي في فرنسا.

يخرج قارئ الكتاب بشعورين متناقضين: أوّلا، الخوف المشروع من الأصولية الزاحفة المتسترة بغطاء الدفاع عن الحريات لإعادة النظر في أسس الحداثة، وفتح المجال لعودة الدين إلى الحياة العامة

في فرنسا، وبمباركة كثير من الفرنسيين المعادين للحداثة، والذين لم يهضموا بعد هزيمة الكنيسة وما جاورها. أمّا الشعور الثاني، فهو شعور الغبطة بردّ الفعل العلماني المقاوِم الذي بدأ ينمو شيئاً فشيئاً. إذ بدأت الأصولية الإسلامية تبدو على حقيقتها للرأي العام الفرنسي الذي بات مدرِكاً لمكر الأصوليين: سفور فحجاب فجلباب فنقاب! ألا يضغطون على غير المتحجّبة لتتحجّب وعلى المتحجّبة لتتنقّب إلى أن يعمّ السواد بلاد الجنّ والملائكة؟

رائع واصلي.

لو اقتصر الأمر على إرادة المنتخِبين لانهارت الجمهورية العلمانية على مذبح الربح الأناني الانتخابوي في غضون عقد أو عقدين من السنين. لكن ليحمد الفرنسيون ربّهم المطرود خارج الحياة العامة على وجود نساء ورجال انتبهوا لخطر الأصولية الإسلامية، تتكسر موجاتها العاتية، المغلّفة في ذلك القبر المحمول المسمّى لباساً شرعياً، على جدران إرادتهم وعلمانيتهم.

لا يستر الحجاب شيئاً، بل يكشف أهداف الأصولية المخفيّة كلّها، هكذا يمكن تلخيص الكتاب. فليس الحجاب سوى شجرة تغطي غابة أصولية تنمو باطّراد قد تطال تراب الجمهورية الفرنسية كله.

ومع آخر جملة تنفجرين ضحكاً... ولم أفهم شيئا. وكأن حيرتي أعادت إليك بعض جدية.

أنتَ الذي تقول إنّ لك ذاكرة فيل، ألم تتعرف على نصك؟

آه يا شيطانة.. لقد كنت تقرئين تعليقي الذي كتبت حول الكتاب فور صدوره. صدقيني لقد انطلت علي حيلتك.

لم أقرأ الكتاب إذ لم أجد وقتاً، وأردت أن أختبر ذاكرتك، ولكنك لم تسقط في الفخ كلياً، مع الأسف. (ضاحكة)

سأحتاط من الآن فصاعداً من قنابلكِ الموقوتة. أمّا الآن فعلينا متابعة الحوار. لقد تماطلنا كثيراً يا صديقتي العزيزة.

طيّب، لنكمل الحديث عن إسلاميي الغرب. هل تكون فرنسا ومعها الغرب كله، في طريق التأسلم؟ وهل صحيح أن أوروبا تحفر قبرها اليوم بيدها بتساهلها مع المتشددين الإسلاميين، كما يعتقد كثير من السياسيين والمثقفين؟

نعم أعتقد بأنها أصعب مشكلة تواجه الديمقراطيّات الغربيّة، إذ وَجدت البلدان الأوروبيّة نفسها في مأزق غير مسبوق جرّاء المصاعب التي يخلقها لها الإسلاميّون اليوم في عقر دارها. نعم حائط الديمقراطيّة أغرى لصوص الأصوليّة. استغلّ الإسلاميون الحرية وجواز السفر الأوروبي والإعانات الاجتماعيّة والديمقراطيّة وحقوق الإنسان المتاحة في الغرب لينقلبوا على نعمة الحداثة، جعلوا من الجاليات الإسلاميّة المتواجدة في الغرب حصان طروادة الذي يمتطون في هجومهم على الحرية.

في اعتقادكَ، هل يمكن أن يندمج المتحدرون من أصول عربيّة وإسلاميّة في المجتمعات الغربيّة الديمقراطيّة العلمانيّة؟

بشرط أن يتحرروا من ضغط النشطاء الأصوليين ومن تحريض المجلس الأوروبي للإفتاء لهم على افتكاك الاعتراف بخصوصياتهم الثقافية وما ينجم عنها من مطالبات بقوانين خاصة بهم مستمَدة من الشريعة الإسلامية. والسؤال المطروح هو: هل يكتفون بما تمنحه العلمانيّة من حرية اعتقاد، أم يطالبون بالمزيد إلى حدّ التحالف مع أعدائها من أصوليين مسيحيين ويهود ومتطرفين يساريين ويمينيين للإطاحة بها نهائياً، وإقامة الشريعة على الأقل في مرحلة أولى في المناطق التي يشكّلون فيها أغلبية؟

إقامة الشريعة! أتمنى أن يكون ذلك مزاحاً منكَ؟

لا.. لا ما انفكّت رحى الجماعة الإثنيّة والدينيّة تحاول ربط وإذابة المغترِب القادم من بلاد الإسلام في جماعة إسلامية وفصله ثقافياً عن المجتمع المضيف، ليتم عزله وليطالِب بعد ذلك بتطبيق ما يسمى شريعة إسلامية.

لكن كيف ظهر التشدد بين أفراد المغتربين المتحدرين من البلدان الإسلامية، ومتى؟

مع بداية ثمانينيات القرن الماضي بدأ يظهر على الشبان ذوي الأصول المغاربية والهندو-باكستانية المولودين في أوروبا نوع من التدين الجديد، يختلف جذرياً عمّا كان سائداً لدى آبائهم. لم يكن تديّنهم، وعلاقتهم بالإسلام عموماً، مجرّد استمرار لذلك التصوّر التقليديّ الذي كان يحمله الجيل الأول من المغتربين. ذلك التصوّر الموروث شفهيّاً، الآتي مع الحقائب من البلد الأصلي، ابتداء من منتصف القرن المنصرم، والذي كانت تبني عليه جماعة الإخوان المسلمين وجماعة التبليغ لاحقاً احتكارهما لدور الدعوة بين صفوف المهاجرين إلى بداية التسعينيات.

ولكن هل كان ذاك مقدَّراً، أم للمسألة عوامل موضوعية تحكمت فيها؟

فعلا.. تحت ظروف معيشية وتأثيرات خارجية وبسيكولوجية عديدة ابتدع الجيل الثاني، واستورد في آن واحد، حركات سلفية متنوعة كانت مهمّشة في البداية أمام حركة الإخوان المنسجمة تنظيمياً وفكرياً، وعلى الخصوص مالياً. بدأت سلفيةً عبادية لكن سرعان ما تفرّعت عنها سلفية سياسية، أنجبت بدورها في نهاية التسعينيات سلفية جهادية متعددة المشارب، بل متناقضة المذاهب، تختلف من بلد أوروبي إلى آخر، فرضت نفسها كشريك أساسي في مشروع أسلمة أوروبا. وهكذا أصبحت تُموَّل في العلن بأموال النفط وجمع الأموال في المساجد في جميع أنحاء أوروبا، إلى أن ضربت ضربتها العظمى في بلاد العم سام في الحادي عشر من سبتمبر-أيلول 2001، في غزوة نيويورك التي باركها المسلمون في مغارب الأرض ومشارقها.

نعم.. نعم.. أنا معك، واصل...

تتباين العلاقة التي تقيمها السلفية مع مجتمعات "دار الحرب" التي تنشط فيها. إذ تتكيف مع قانون كل بلد: تستحصل رخصة استثنائية من هنا، وتفتح منفذاً في جدار العلمانية من هناك، ويفجّر أحد أفرادها نفسه ليقتل أعداء الله من مستعملي القطار والمطار وحيثما وُجد الكفار...، لكنها تبقى في مجموعها هادفة، وممولة في السر وبأشكال تمويهية مختلفة، إلى غاية واحدة هي التمكين لدين الله لتسهيل إقامة شرع الله على المسلمين في أوروبا، في انتظار تعميمه على الأوروبيين أجمعين.

وهل يجد هؤلاء تبريراً دينياً أو تاريخياً أو فكرياً معيّناً لِما يفعلون؟

من ابن حنبل (780-855)، الذي عاش صراعات عصره واقتتال المسلمين فيما بينهم، مروراً بابن تيمية (1263-1328)، الذي عايش غزو المغول لبلاد المسلمين، ووصولاً إلى محمد بن عبد الوهاب (1720-1792)، المتسلح بفكر سابقيه، المتسائل عن ضعف المسلمين وتفوق الأوروبيين، يعلّمنا التاريخ أنه كلما وجد المسلمون أنفسهم في أزمة معيشية أو مذهبية، أو أي فتنة كانت، كان فقهاؤهم ينادون إلى العودة إلى إسلام السَّلف الصالح، حتى أصبحت هذه الفكرة وإلى اليوم فلسفتهم الوحيدة، بل غدت دواء لكل علة.

ولكن هؤلاء يعيشون بعيداً عن العالم الإسلامي ومشاكله؟

صحيح أوافقك الاستغراب. يمكن أن يَفهم الدارس الأمر بسهولة حينما يكون متعلقاً بالنشطاء الذين يعيشون في أرض الإسلام أو الذين جاؤوا منها، لكن يَصعب عليه أن يجد تفسيراً لعودة من وُلدوا في الغرب إلى سَلَف صالح مُفتَرض، آملين أن يجدوا لديه وصفة لحل مشاكلهم اليوم! كيف يمكن أن يتهافت شبان يعيشون في قلب الحداثة الأوروبية على فتاوى يصدرها ويرسلها لهم شيوخ دين يعيشون في دول عربية متخلفة تخلفاً مريعاً، فقهاء وكتّاب يبدو من أقوالهم وكتاباتهم أنهم من البشر الذين لم يبرحوا المرحلة اللاهوتية بعد؟

والقنبلة الديموغرافية التي تُرهِب بعض الأوروبيين؟

تتفق كثير من الدراسات الديموغرافية على أن نسبة السكان المتحدرين من أصل إسلامي قد وصلت في بداية هذا القرن إلى 5 بالمائة من سكان أوروبا، وتتنبأ بعض دراسات مستقبلية أخرى أنها ستصل إلى حوالي 15 بالمائة في حدود سنة 2025. أحياءٌ بكاملها أصبحت اليوم إسلامية قلباً وقالباً، يشعر فيها الفرنسيون غير المسلمين كأنهم غرباء في بلدهم، بل غير مرغوب فيهم أصلا! أحجبة وأنقبة وبوركات وتجار حلال في كل مكان... طُرد لحم الخنزير، وكل لحم غير مذبوح على الطريقة الإسلامية، واستبدال الجعة وخمر بوردو اللذيذ في مقاهي تلك المناطق المؤسلَمة بالشاي المُنعنَع وحمود بوعلام (مشروب غازي جزائري شهير) ومكة كولا، وغيرها من السلع الخارجة عن مراقبة أجهزة الدولة التي أصبحت تغمض عينيها مقابل سلم اجتماعي هشّ. لكن الأخطر من ذلك أن يناصر مفكرون غربيون الأصولية باسم احترام حقوق الإنسان والحق في الاختلاف!

وإلى أين تسير الأمور في رأيكَ، إلى انفجار أم اندماج؟

أعترف بأن لا جواب لدي. عندي أسئلة فقط.

وما هي؟ ومَن يجيب عليها؟

هناك واحد فقط بإمكانه أن يشفي غليلنا ويعطينا أجوبة شافية...

هل تمازحني أم كعادتك ستدلني على كتاب من 300 أو 400 صفحة، وستقول لي إنه يتضمن هذه الإجابات وما عليك إلا بقراءته. أليس كذلك؟ أرجو أن تخبرني بقصدك من دون أُحجيات ومجهودات فكرية مضنية، فأنا أريد من دردشتنا الترويح عن النفس أولاً؟

أبداً لقد قصدتُ كائناً معيناً وليس كتاباً.

هل هو مِن معارفنا، ابتسامتكَ المستترة فيها سخرية ما؟

فكري تجدي.

لا أحبذ أن تتحول دردشتنا إلى أحجيات ومجهودات فكرية مضنية، أريدها للترويح عن النفس أولاً؟

عفوا، عفوا، سأجيب... مَن لديه الإجابات عن أسئلتنا هذه هو اللّه تبارك وتعالى فقط.

(تنتفضين ضاحكة) كنتُ متأكدة أنكَ تنصب لي فخاً ومع ذلك سقطتُ فيه بغباء. ابتسامتك الخبيثة كانت دالة يا أيها الأستاذ الشيطان. أتعرف كيف أنتقم منكَ، أنتَ مُجبَر الآن على الإجابة عن الأسئلة التي طرحت؟ دعني أُعيد عليك أسئلتك:

هل ستكون الجاليات المتحدرة من "الثقافة الإسلامية" هي مشكلة الغرب الأولى في القرن الحادي والعشرين، كما يتنبأ كثير من المفكرين؟ هل ستسود الشريعة أوروبا كما يحلم كثيرٌ من المسلمين؟ وكيف يعمل الأصوليون منهم في تحقيق ذلك الهدف؟ وما هو رد الأوروبيين المحتمل على هذا الغزو الإسلامي؟

فبماذا تجيب؟

استغلّ الإسلاميون سذاجة بعض الغربيين وعقدتهم الكولونيالية، وانتهازية بعض المثقفين في الغرب عموماً وفرنسا خصوصاً، لتمرير بعض "الكلمات" إلى الخطاب الإعلامي والسياسي، أقلّ ما يقال عنها إنها تضليلية. من أسخف هذه الكلمات لفظ "إسلاموفوبيا". إذ يعمل كثير من المتلاعبين بالعقول على فرضها وإدخالها إلى قاموس اللغة اليومية. أوّلا، ليتسنى للإسلاميين الضغط على المؤسسات من أجل انتزاع حقوق فئوية (مسابح وقاعات رياضية غير مختلَطة، فرضُ الحجاب والنقاب، تجريم فقدان العذرية... وبقية الترسانة المتخلفة)، وثانيا، ليتمكن أعداء العلمانية الفرنسية من الدفاع عن علمانيتهم الجديدة المنفتحة كما يقولون، مستغلّين الفوضى المفهومية المفتعَلة.

وكيف تم تجيير مصطلح "الإسلاموفوبيا"؟

نعم و قد تسرّبت هذه الكلمة إلى كثير من الدوائر، ووصلت إلى فم نيكولا ساركوزي ذاته، زعيم العلمانيين الجدد، هؤلاء الذين يتخذون من الإسلام في فرنسا ذريعة لإعادة النظر في العلمانية من أجل إعادة الدين المسيحي إلى الواجهة.

والسؤال: هل أصبحتْ الإسلاموفوبيا سلوكاً ثقافياً في فرنسا حقاً؟ كما عنونت "الخبر الأسبوعي" الجزائرية اللقاء الذي نشرته مع فانسان غيسييه، أحد مروّجي الكلمة، والذي حاول تضليل قراء الأسبوعية، مقدِّماً صورة مشوَّهة عن وضع المسلمين، فكأنّ فرنسا أصبحت مذبحة للمسلمين وللعرب. فهل هو خوفٌ مَرضيّ من الإسلام فعلاً، كما يقول المستجوَب والمُستجوب؟ هل يمكن الحديث عن رهاب ما؟ هل هو خوف لاعقلاني من الإسلام؟ هل هناك هلع من الإسلام فعلاً؟

والجواب يا هاوي أسئلة؟

لا، ليس صحيحاً. فلقد تم الاعتراف بالإسلام كدين رسمي في النمسا مثلاً منذ سنة 1912، وفي بلجيكا سنة 1974، وليس اعترافاً نظرياً فحسب وإنما بكل ما يعني ذلك من مزايا، وكذلك الأمر في معظم الدول الغربية.

وفي فرنسا، لا يمكن أن تجدي بسهولة إنساناً مكوَّناً تكويناً طبيعياً يكره المسلمين لكونهم مسلمين، أو يكره الإسلام هكذا مجاناً. وأنتِ أدرى بذلك.

أتفق معك..

حتى الأقلية العنصرية لا تجرؤ على إظهار ما يختلج في دواخلها من أحقاد. ففضلاً عن وقوف القانون بالمرصاد لكل مَن تسوّل له نفسه الأمّارة بجان ماري لوبان، تجد الأفكار العنصرية مناهَضة شديدة وحاسمة من لدن المجتمع المدني الفرنسي.

وهو كذلك.. أتذكرُ يوم وصل العنصري جان ماري لوبان إلى الدور الثاني من الانتخابات الفرنسية سنة 2002 كيف تظاهرنا مدة أسبوع... انتفاضة ديمقراطية حقيقية كانت.

ولكن يا عزيزتي، يمرح العنصريون ويسرحون في بلاد المسلمين، فينعتون هذا بالضال وذاك بالكافر المغضوب عليه، مستخدمين وسائل الإعلام الرسمية ومختلف المنابر، فضلاً عن خُطب الجمعة المنقولة على أمواج الأثير. كل ذلك دون أن يلاحَقوا قانونياً ودون أن يُتفّهوا إعلامياً. بينما سرعان ما يجد إخوانهم في كره الآخر في الغرب، وفي فرنسا تحديداً، أنفسهم متهَمين في المحاكم ومبهدَلين أمام الرأي العام بمجرّد محاولة التعبير همساً عن كرههم للآخر. فلعنصريون الغربيون يخافون ويستحون ويضطرون صاغرين إلى ممارسة عنصريته في السرّ.

وفي بلاد المسلمين؟

تمارَس العنصرية علانية أمام ربّ العالمين، ولو لم يغضّ الغربيون الطرف عمّا يقال عنهم عندنا، وكيف ينظر إليهم جيرانهم المسلمين، وكيف تصفهم كتب المسلمين، لأصبحوا عنصريين أجمعين. مَن يتابع ما يرتكبه بعض المسلمين من فضائح في فرنسا لا يحزن فحسب، بل يستغرب كيف لا يصوِّت الفرنسيون بكثافة لصالح اليمين المتطرف؟

في مدينة "كليرمون فيرون" الفرنسية، وفي ساحة سانت كاترين بالذات، تنازَل الكاثوليك عن كنيسة للمسلمين ليحوّلوها إلى مسجد. لو تدلينني على مسجد تنازل عنه المسلمون للنصارى، سأكون لك من الشاكرين إلى يوم الدين. في فرنسا مثلا، لم تبق إلا حفنة من أهل اليمين المتطرف تتأسّف، وبحياء، لضياع الجزائر، فأغلبية الشعب الفرنسي تدين الاستعمار اليوم، وكذلك الإيطاليون، لم يعترفوا بجريمتهم في ليبيا فحسب بل هم في طريق تعويض الليبيين. أما المسلمون فلا يزالون في أغلبهم يتباكون على ضياع الأندلس، ويحلم بعضهم باسترجاعها، بل يطالب بذلك دون حياء. وكان أحرى بهم أن يحمدوا الله على ضياعها، فلو لم تضع لكانت اليوم خراباً في خراب، كأخواتها العربيات المسلمات.

إلى هذا الحد؟

نعم وصدقيني فأنا لا أبالغ.

أصدّقك ولكن سأذهب إلى بلد إسلامي قريباً وأتأكد بأمّ عيني. لكن لنعد إلى الإسلاموفوبيا؟

هي خدعة وفخ للمغفلين، يخلط بها الإسلاميون وحاملو حقائبهم الأوراق، فيوهمون الناس أن كل مَن يعاديهم يعادي الإسلام ومعشر المسلمين، بل إنه مريض يعاني اضطراباً نفسياً، يجعله يخاف خوفاً لاعقلانياً من الشريعة. فالشريعة، حسبهم، ليست خطيرةً، ومن يخاف منها فهو مريض مسكين أو جاهل أو عنصريّ لعين. في بلدانهم الأصلية كانوا ولا يزالون يعتبرون كل من لا يجاريهم في غيّهم سفيهاً وماسونياً وشيوعياً...، ويحرمونه حتى من حق الانتخاب (السفيه الجزائري لا يحق له الانتخاب في برنامج الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وللقارئ أن يتخيّل ما يُقصد بالسفيه). وهي تهمٌ مُحسّنة لخّصها إخوانهم في الغرب في عبارة "الخوف اللاعقلاني من الإسلام"، لتتماشى مع متطلّبات الأسلمة في أوروبا.

والهدف من ذلك؟

يحاولون من وراء ذلك تشويه كل صورة للعلمانيين، وصورة جميع الذين يناضلون ضدّ تطبيق الشريعة على مسلمي الغرب، وخلقِ التمايز الديني وزرعِ الشقاق الإثني. ففي فرنسا هناك إرادة حقيقية لجعل الإسلام يتمتع بمكانة مساوية لكل الديانات الأخرى، وهذا أمر طبيعي في إطار العلمانية الفرنسية.

اسمعي ما تقوله "فضيلة عمارة" معترفة قبل أن تتبوأ منصبها السياسي: "أنا محظوظة أن أولد في هذا البلد ذي الثقافة المسيحية اليهودية، الذي أتاح لي عن طريق علمانيته أن أمارس شعائري الدينية بكل حرية، ودون أن يتدخل أحد في ضميري واعتقاداتي".

معها ألف حق وحق. أكمل أكمل...

إسلاموفوبيا... يحاولون بهذا الاختراع يا عزيزتي تغطية حقيقة الهجوم الإسلاموي على أوروبا، وصد، بل وتجريم، كل نقد نزيه يوجّه للنظرة الدينية للعالم، وإسكات المسلمين الرافضين للشريعة وتعطيل كل محاولة انعتاق من الدين في بلدان الإسلام. هي خط أماميّ في حربهم ضدّ العلمانية التي بدأت تتخلّص من عقدتها رويداً رويداً داخل المجتمعات العربية ذاتها.

هل هو إسلاموفوبي مَن ينادي بفصل الدين عن الدولة، ومَن يكره اللامساواة بين الرجل والمرأة، ويرفض العيش تحت إرهاب نيران جهنم، ويدين قطع يد السارق، ورجم الزاني والزانية، وعدم اعتبار الآخرين "قردة وخنازير"؟ إنّ كره هذه العادات والأفكار لا يعني البتة كره المسلمين، وانتقاد تدخل الشريعة في حياة الناس الحميمية ليس انتقاداً للمسلمين. فالعلمانيّ، فرنسياً كان أو عربياً أو توغولياً، لا يكره المسلمين، وإنما يكره رجمَ المسلمين وجَلدَهم وضربَ أعناقهم ودفعَهم لمعاداة بقية الإنسانية. لا أحد من العلمانيين تزعجه صلاة إنسان أو صومه شهر رمضان أو شعبان أو حجه إلى مكة أو الڤاتيكان، ذلك حق تكفله القوانين في بلدان بني عِلمان. أما غير المقبول فهو أن يتحوّل الاعتقاد الخاص إلى قضية عامة، وأن يحاول بعض "الحدَاثفُوبيين" ترتيب العالم للآخرين إرضاء لباتولوجيتهم وعقدهم الشخصية ورهابهم من الغيب.

لكل إنسان الحق أن يستر عورته كيفما شاء، أو لا يسترها "جَملة"، كما يقول أشقاؤنا في تونس.

تضحكين ملأ شدقيك، وتشيرين إلي بيدك أن أواصل.

قلتُ لكِ إن لكل إنسان الحق في أن يلبس ما يشاء، ولكن حينما يتمترس داخل بوركة، ذلك الحجاب الشامل، يصبح هذا الأمر متعلقاً بالأمن العام: يمكن لأيٍّ كان أن يختفي تحت هذه الخيمة المتنقلة ليرتكب أفعالاً ضدّ المجتمع؟ هل يحق لأحد أن يخفي هويته في مجتمع ديمقراطي؟ هل يحق للمواطن أن يتحوّل إلى شبح؟

ذكّرتني بالشخصين اللذين هاجما مركزاً بريدياً وهما يرتديان نِقابين في بداية هذه السنة (2010)...

آه فعلا واستوليا على 5 أو 6 آلاف أورو.

ولكن ما هدف مَن يرفعون تهمة الإسلاموفوبيا؟

لإرهاب المدافعين عن العلمانية من أجل تركهم يعيثون في العلمانية فساداً، يقطعون الأيدي ويسيلون دم الأضاحي في العمارات ويصلون صلاة الجمعة حيثما أرادوا، ويحرمون بناتهم من حضور حصص الرياضة ودروس الجهاز التناسلي... وإن لم يقبلوا بكل هذا سيصنفون مع الذين بنفسهم مرض، الذين يكرهون العرب ويخافون الإسلام دون سبب.

لا أحد يكرهني لأنني عربية، ولا أحد يُكرَه لأنه كذا أو كذا. تُحاسَب الأفعال فقط. هكذا يبدو لي، وهكذا أحس فعلاً. لكن هذا لا يعني عدم وجود نسبة قليلة من العنصريين.

طبعاً، لا يكره معظم الفرنسيين معظم المسلمين ولا يخافونهم. على عكس ما تحاول أن توحي به الكلمة، يَعرف الفرنسيون الأخطار التي تُحدق بهم. هم ليسوا مرضى بل يهابون بوعي من الإسلام الشامل، الشريعة. لقد ولى ذلك الزمن الذي سيطرت فيه مقولة "الغربيون يجهلون الإسلام وعلينا أن نُعرّفهم به". هم يحسنون القراءة جيداً، ولا يحتاجون إلى من يقدم لهم النسخة التي يريد من الإسلام. لا وجود لهذه الإسلاموفوبيا المتخيّلة تارة والمنصوبة كفخ في الغالب، بل هناك خوف مشروع وعقلاني ومؤسَّس على معرفة، يشاركهم فيه حتى المسلمون المعتدلون. فمَن لا يخاف على حريته فهو إما غير واع أو جاهل أو متواطئ، أو هو كل هذا في آن.

ولكن نجد في مقابل هؤلاء المتشددين باحثين وكتاب وناشطين جمعويين يبشرون بإسلام آخر عقلاني وديمقراطي، إسلام تنويري كما يقول "مالك شبل". ألست أنت الذي عرّفتني على بعض كتبه؟

بلى يا عزيزتي، أقرأ بكثير من الاهتمام المقالات التي تتطرق لـ"إسلام التنوير"؛ ولا أخفي عليك أنّ الموضوع يستفزني أيما استفزاز.

لماذا؟

"إسلام التنوير"؟ ماذا سيكون ردّ فعل أي عقلانيّ فرنسيّ لو قرأ عنوانا كهذا: "كاثوليكية التنوير"؟ سيضحك حتماً ويستهجن الجَمع بين الكلمتين. وكذلك معظم المسلمين سيرون في الأمر ضحك على الذقون، وسيتساءلون عن معنى ذلك التنوير العقلانيّ الذي يؤمِن بالتثليث؟ أمّا بشأن "يهوديّة التنوير" فلا تجدين كبير عناء لمعرفة رأي المسلم في الأمر، يكفي ذكر حائط المبكى لنفي كل تنوير عن ديانة بني إسرائيل.

و...؟

لكن في حالة ما إذا تعلق الأمر بالإسلام فكل شيء ممكن. يُطرب البعض للجمع بينه وبين التنوير، ويعمل البعض الآخر جاهداً من أجل تبيان ذلك الزّواج المصطنع بين العقل والنقل. لا يرى القوم في ذلك أدنى حرج، إذ أنهم على يقين بأنّ دينهم دين العقلانية والتنوير. فإن كان هناك تناقض ما فلا يعدو أن يكون، في زعمهم، مجرد سوء فهم مردّه عدم فهم أولئك الحقيقيّ لدين الإسلام لأنهم في غير مستواه، لم يهضموا العبقرية الكامنة فيه بعد. فالعيب في الآخرين لا في تراثهم الدينيّ، فهو منزّه وهم المخطئون. "لم نقرأ القرآن قط"[1]، يقول لنا "يوسف الصديق" دفعة واحدة ومن عنوان كتابه.

بمعنى أننا لم نفهمه؟

نعم.. ولكن هل صحيح أننا لم نقرأ القرآن، أم العكس هو الحاصل: لم نفعل شيئا سوى قراءته؟ لقد قتلناه قراءة، بل عصرناه عصراً. (تبتسمين) فمهما كثرت القراءات والاجتهادات فلن نغيّر من الأمر شيئاً. فما عسانا نجد فيه غير ما يمكن أن يحمل من ثقافة القرن السابع الميلادي؟

هل تعتقد أنها كتابات تمجيدية؟

يخيّل لي وأنا أتابع ما يُكتب عن "إسلام العقلانية" والتسامح والتنوير والسلام والحوار بين الأديان...، أنني أنصت وأقرأ عن دين آخر في قارّة أخرى وضمن تاريخ آخر ومنطقة جغرافية غير التي أعرف. لكن إن كان الإسلاميون ومن لفّ لفّهم يخوضون بهذا معركتهم الإيديولوجية الأخيرة ضدّ الحداثة التي يرونها خصماً بديلاً لأوهامهم، فلست أدري ما هي أهداف من يدّعون العقلانية ويؤمنون في نفس الوقت بعقلانية الإسلام؟ فهل هو تكتيك الحداثيين بغية تقريب المسلمين من العصر دون أن يَصدموا مشاعرهم بحكم أنهم يعرفون مسبقاً أنّ المسلم لا يقبل أمراً متناقضا مع دينه؟ لكن أليس هذا تأجيلاً لما هو قادم حتماً؟

لا أعرف.

لماذا نتمادى في ترقيع ما لا يُرقع؟

لا أعرف أيضاً..

ألا يجب التصارح اليوم قبل غدٍ، قبل تفاقم الأمور؟

لا أدري البتة.

(وتنفجرين ضحكاً) ومع ذلك أواصل في طرح أسئلتي متظاهرا بجدية تامة:

متى نفهم ونُفهِم الناس أنّ الأصولية هي أزمة الإسلام وليست أزمة في الإسلام؟

لا أعلم متى... (وتستمرين في ضحكك...)

لقد كذبنا بشأن هذا الدين بما فيه الكفاية. لقد حان الوقت للاعتراف أنّ الإسلام والحداثة خطّان متوازيان لا يلتقيان أبداً. وذلك لأسباب بسيطة لا يدركها سوى أولائك الذين لا يريدون إدراكها.

ولنتابعين ضحكك، إليكِ بأسئلة أخرى:

[1] Youssef Seddik , Nous n'avons jamais lu le Coran, Stock 2004.

ألا يعرف من يلعب لعبة التوفيق الدائم أنه يكرّس في وعي الناس وفي لاوعيهم أنّ "لا تنوير خارج إطار الدين الإسلامي"؟ ألا ينبغي أن نتحمّل مسؤوليتنا الأخلاقية وما ينجم عنها، ونبتعد عن ثقافة النفاق والمجاملات ونجهر بآرائنا الحرّة، حتى وإن صدمنا غيرنا بما نعتقد أنه الحقيقة: لا تنوير دون استبعاد الدين من الحياة العامّة. لا يمكن أن تقوم للإنسان العربي قائمة ما دام لم يُدرِك أنّ أوّل عائق يقف أمام تقدّمه هو تشبّثه بتعاليم دينية باتت متناقضة قلباً وقالباً مع روح العصر. فماذا يعني أن نقرأ اليوم عن مجلس إسلامي أعلى في الجزائر يقوم بإنجاز تقرير عمّا أسماه "النشاط العلماني المشبوه في الجزائر"، قاصداً الفكر التنويري العقلاني؟ مجلسٌ يرأسه من تولّى لسنوات عديدة رئاسة معهد الفلسفة بجامعة الجزائر محارِباً للعقلانية، ورئيساً لاتحاد الكتّاب الجزائريين سنوات عدة دون أن ينشر "حدوثة" واحدة؟

وماذا تريد قوله بكلمات سريعة؟

لا فائدة ترجى من مثقف عربي يمضي حياته كلها وسط هذا الخراب دون أن يزعج أحداً، مكتفياً بحقيقة مُجمَع عليها بدل حقيقة مُبرهَن عليها. ألا ينبغي أن تكون قضيته الأولى هي تفكيك وتعرية الوهم الدينيّ الذي يشحن الناس بإرادة كبيرة في عدم الانتماء إلى عصرهم؟ في هذه اللحظة السوسيولوجية الحاسمة، هل للمثقف العربي خيار آخر في التعامل مع الدين غير كونه إيديولوجيا سائدة، بمعنى وعي غير واعٍ؟

ألم يحدث تقدماً فكرياً ما طيلة هذا الوقت؟

لقد تغير الديكور ولكن يبقى الجوهر هو هو.

هذا كلام عام، حدّد ودقق؟ أو كما يقول أساتذة الفلسفة يا أستاذ الفلسفة سابقاً: حلل وناقش؟

منذ ابن رشد، يا سائلة متهكمة.. وتأكيده على ما بين الشريعة والعقل من اتصال، مروراً بما سمّي بفكر النهضة الداعي إلى ضرورة العودة إلى أصول الدين الصحيحة، ووصولاً إلى "مالك شبل" الذي ذكرناه سابقاً والذي وجد عن طريق اللغة الفرنسية كل شيء في الإسلام، الجنس والحبّ والعقل، وانتهاء بـ"عبد الوهاب المؤدب"، الذي ما زال متمادياً في اعتبار الأصولية مجرّد علّة في الإسلام قابلة للشفاء، لم تفعل هذه الإصلاحوية السائدة سوى انتقاد تأويلات مفترضة خاطئة للإسلام، ولم تقدّم أدنى نقد ابستمولوجي لنظرة الإسلام للعالم والإنسان. بل أخطر من ذلك، لا زالت لا تفرّق عمداً بين الإسلام كإيديولوجيا وبين الحضارة العربية المتحقّقة على أرض التاريخ. ورغم امتلاكهم لأدوات البحث المعرفية الغربية لم يتجرّأ أحدهم على تحطيم أسطورة "الإسلام صالح لكل زمان ومكان" فحسب، بل إنّ كتاباتهم تؤكد تلك الأطروحة الأصولية. فهم وإن لم يشعروا، يخدمون مشروع الدولة الثيوقراطية الإسلامي.

وما الحل في رأيك؟

يجب أن ننتظر مجيء المفكر العربي الذي يعلن القطيعة ويحمل الخبر السعيد: "فصل المقال في ما بين الشريعة والعقل من انفصال".

ألا يمكن التوفيق بين الحداثة والتراث الإسلامي، أو على الأقل أن يأخذ المسلمون ما هو ضروري وما لا يتناقض مع معتقداتهم؟

مَن يحاول تبني أو الأخذ بتكنولوجية الغرب ويرفض فلسفة الحداثة فهو كمن يتزوج من جثة هامدة أو جيفة. فالحداثة كيلا نذهب بعيدا في الكلامولوجيا: تتمحور حول ذلك القرار الذي اتخذه الإنسان في الاعتماد على نفسه ونفسه فقط، وفي أنه مركز نفسه. فالمركزية ليست اللّٰه بل الإنسان. وما الدين سوى قضية وعي فردي.

والحاصل، أو "الحاصول" كما تقولون في الجزائر؟ (وتضحكين)

أريد القول إن المؤمنين الحاليين في الديانات الأخرى يبحثون عن السكينة أكثر مما يبحثون عن الحقيقة، أما المسلمون فيبحثون عن الحقيقة أكثر من أي شيء آخر. وهذا يتصادم مع الحداثة التي هي في جوهرها حاملة للشك والتعدد.

لئن كان الحديث عن الفكر والكتب والفلاسفة شيقاً، وكذا الانتقال بين الميدان والكتب مفيداً، إلا أنني أفضّل الانغماس أكثر في الواقع الذي عشته أنت ذاتك، فهل يمكن أن نعود إلى مثال الجزائر؟

نعم يا عزيزتي وبكل فرح. تعرفين أن الحديث عن بلدي يسرني فعن ماذا تريدين السؤال؟

سمعت أخيراً عن محاكمة جزائريين بتهمة اعتناق المسيحية. أليس ذلك تدخلاً سافراً في حياة الناس الشخصية؟

يهدد قانون ممارسة الشعائر الدينية لغير المسلمين الصادر في أواخر عام 2006 في الجزائر بسجن أيّ شخص يروّج لمعتقدات غير الإسلام، ويُلزِم الأقلّيات الدينية بممارسة شعائرها في أماكن محدَّدة، ترخّص لها السلطة مسبّقاً. تحاول السلطات إخفاء أتباع عيسى كأنّ وجودهم يلوّث المحيط الإسلاميّ الذي ينعم به البلد. فهل هم الذين يخرّبون الجزائر منذ 1991؟ هل هم المسؤولون عن مقتل أكثر من مئتي ألف جزائري مسلم؟

لا أبداً.

لم تكتفِ السلطات بإصدار القوانين، بل استعانت بخبراء الإيمان العرب، فجاءوا إلى الجزائر ليعلّموا الجزائريين الوشاية ويرشدونهم إلى أقرب طريق توصل إلى الجنة: "يجب على كل جزائريّ إذا كان يعرف أحداً تنصّر أو شخصاً يدعو إلى التنصير أن يبلغ السلطات في الحال"، هكذا يَطلب الداعية المصري "صفوت حجازي" من الجزائريين على صفحات جرائدهم: ممارسة الوشاية الشرعية. وأتركك تستنتجين وحدك كيف ينظر الشيخ إلى مواطنيه الأقباط.

هذه سخافة حقاً.

ولم يقف عند هذا الحدّ من الإسفاف بل راح يؤلّب الجزائريين على المسيحيين، ذاكراً على هامش ملتقى الفكر الإسلامي المنعقد هناك أنّ 580 موقعاً مزوّراً للفتوى يديره مسيحيون ينتحلون الإسلام لتقديم فتاوى مُضلّة للمسلمين.

حتى قَبل الإسلام، أو ما يسمى زوراً "جاهلية"، لم يكن العرب يبالون بمن يخرج عن دينهم كفرد، فكان منهم اليهود والمسيحيون، ولم يكن يضيرهم انتقال أحدهم إلى عقيدة أخرى إذا لم يناصبهم العداء. لقد كانوا ضد من يعمل على القضاء على عاداتهم فقط.

وماذا كان موقف الإعلام من عقوبة "الردة"، لا يمكن أن يصمت الإعلام هنا في الغرب عن مثل ذلك الكلام أبدا؟

حتى الصحافة الجزائرية المعرّبة، التي تدّعي الاستقلالية، طلّقت التحرّي الموضوعيّ وراحت تطرح الموضوع على أنه "مؤامرة تبشيرية" تحاك ضدّ الوطن. لم نقرأ على صفحاتها غير ترديد الشائعات التحريضية، ومحاولة ربطٍ ماكرٍ بين المسيحية ومنطقة القبائل. ونعلم جيداً كيف ينتقل محترفو القومية من التمييز الديني إلى التمييز العنصري. لا يعدو ما يكتبه "الصحافيون" مجرّد وصم للذي غيّر دينه "مقابل حفنة دولارات أو يوروات". فكأنّ كل جزائريّ ولد في عُرف هؤلاء الكتبة مسلماً محكوم عليه أن يموت كذلك. فحتى ذاك العنف الطائفيّ المشتعل بين المالكية والإباضية في منطقة ميزاب الجنوبية تفسّره جريدة تافهة بتدخل اليهود، وتتحدّث عن زياراتهم للمنطقة قبل بداية ما أصبح معروفاً إعلامياً بـ"أحداث بريان".

وما هو موضوع الصراع الحقيقي إذن؟

هو في حقيقة الأمر نزاع مذهبيّ قديم ظل مستوراً، ليس له من حل سوى الاعتراف بالمذهب الإباضيّ اعترافاً رسمياً من قبل الدولة الجزائرية، كيلا تصبح دولة مذهبية. وسنتطرق للمسألة مستقبلاً حينما نتطرق لمسألة الحرية الدينية في البلدان العربية.

وإلى ذلك الحين إليكِ أمثلة دالة عن الجو: يكتب قارئ مستفسراً عن مصير مواطنه النصراني (شخص نصرانيّ وهو جزائريّ يدعو إلى التوحيد بين المسلمين والنصارى لأنه يَعتبر أنّ كلاً منهم على حق؟)، فكيف يجيب المفتي الشيخ "أبو عبد السلام"، المشرف على قسم فتاوى بجريدة "الخبر" الجزائرية؟: "إنّ الدين عند الله الإسلام"، "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة مِن الخاسرين". ويضيف: "كل مَن لا يَدخل الإسلام من اليهود والنصارى وغيرهم وقد سمع ببعثة محمد وما جاء بها فهو من أهل النار" (الخبر 2008/7/9).

وعلى الأرض كيف هي أحوال غير المسلمين؟

لقد تمّ غلق 12 كنيسة بروتستانتية في زمن قياسي. فضلاً عن المداهمات والمحاكمات الكثيرة التي كان ضحيتها من اتُّهموا بالتنصير والدعوة لغير الإسلام.

ماذا لو منع المسيحيون النشاطات الإسلامية في بلدانهم معاملة للمسلمين بالمثل؟ ستقوم القيامة ويشير الكل بالبنان إلى الغرب الحاقد الذي لا يحترم حرية العقيدة ويناصب الإسلام العداء...! ماذا لو يمارس المسلمون شعائرهم في بلدان المسيح تحت إجراءات أمنية مشدّدة كما يحتفل المسيحيون بعيدهم في جزائر الإسلام المتسامح؟!

وليس هذا فحسب...

وماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟

لا يكفّ رئيس المجلس الإسلامي الأعلى عن إدانة ما يسمّيه النشاطات التنصيرية السرية، ذاهباً إلى حد القول إنها تسيء إلى الإسلام دين الدولة، وتطعن في القرآن والسنة. فكأنّ عميد كلية الفلسفة بجامعة الجزائر سابقاً لا يعرف بأنّ الإسلام ذاته جاء ليس للطعن في الديانات الأخرى بل للقضاء عليها نهائياً، ولا زال!

كم كنتُ على حق عندما قاطعت دروس هذا الفقيه حينما كان يمثّل دور أستاذ الفلسفة في جامعة الجزائر. وقد كان من أساتذتي مع الأسف الشديد.

وأيضا..

يتبجّح الدكتور "مشنان"، عضو مجلس الإفتاء، بحرية العقيدة، لكنه ينفيها مباشرة حينما يدقّ باب التفاصيل؛ فيتحدّث عن الذين اعتنقوا الدين المسيحي كأنهم مرضى "ينبغي أن يعاملهم المجتمع على أساس أنهم تعثروا وسقطوا في مسيرة الحياة وينبغي على من حولهم أن يعينوهم على أن يقفوا مرة ثانية، وأن يعودوا إلى مجتمعهم ودين آبائهم وأجدادهم. والغرض من ذلك هو ما نرجو لهم من سعادة الدنيا والآخرة. وتبقى لهم الحرية كأفراد ويتحملون مسؤولية تصرفاتهم".

وهل هو الذي يختار للناس سعادتهم؟

نعم وهو ما يشرحه الشيخ "النذير التلمساني" دون حياء في الدين: "إنّ معاقبة المرتدّين ستكون كافية لردع من تسوّل له نفسه الارتداد عن الإسلام نحو ديانة أخرى" (آفاق يوم 2009/4/2). ألا يذكّرنا كلام الفقيه بمقولة ماو تسي تونغ الإرهابية: "عاقب واحدا تؤدّب مائة"؟

غريب ما أسمع حقا! ما علاقة المواطنة بالتدين؟!

أن يكون المرء غير مسلم، فهو في عرف الدكتور مشنان وأصدقائه ومريديه لا ينتمي إلى المجتمع الجزائري، ولا يمكن أن ينعم خارج الإسلام لا بسعادة الدنيا ولا بسعادة الآخرة. بل يحذّره الدكتور ويحمّله مسؤولية تصرّفاته الحرّة المستقلة. لئن ولد المرء جزائرياً بالصدفة فإنه مسلم رغم أنفه. فكأنّ السيد مشنان لم يبرح بعد مرحلة ربّ واحد وحزب واحد ومحطّة قطار واحدة، كما كان يضيف صديقي المتفكّه في جامعة الجزائر.

تبتسمين وذاك يسعدني..

يقول نائب رئيس جمعية علماء المسلمين إنّ القرآن توعّد الذي يخرج عن دينه بالعذاب الأليم، أمّا في السنّة فقد ورد أنّ من بدّل دينه يُستتاب أولاً، ثمّ يُقتل إذا أصر على البقاء في دينه الجديد (جريدة صوت الأحرار2008/8/6)، يشرح من كان متنكراً في ثوب أكاديمي، أستاذي (أيضاً) في وحدة المنطق في جامعة الجزائر. أحمدُ اليوم ربّه على أنني لم أُصب بعدوى لا منطقه.

شيء فظيع حقا!

فظيع... أعرف أنك لا تستطعين هضم ذلك. أما في بلداننا فما زال فنحن لم ندخل بعد عصر حرية العقيدة، فما زال القوم يلوّحون بسيف الردّة لأنّهم يؤمنون بالذمّية وما جاورها من سفاهة، وإن أظهروا بعض تقيّة. لماذا يصمت هؤلاء الذين مسّتهم النعرة الدينية من صحافيين ورؤساء جمعيات إسلامية أصولية وأئمة جوامع وفقهاء سلطان... عن الوضع المحزن الذي وصلت إليه مقابر المسيحيين

واليهود في الجزائر؟ كان الفيلسوف "ألبير كامو" يقول عن مقابر عنابة[1] إنها تعطي شهيّة للموت، لكن مَن يرى اليوم حال المقابر غير الإسلامية المزري، يفقد شهية الحياة في الجزائر.

إلى هذا الحد وصلت الأمور في التقهقر؟

حتى الأرقام تمّ التلاعب بها بغية إخفاء التعدّد الديني والفلسفي في الجزائر. ففي الوقت الذي تقدّر كثير من التقارير المستقلة عدد المسيحيين في الجزائر بحوالي المائة ألف، تؤكد وزارة الشؤون الدينية أن عددهم لا يتجاوز الأحد عشر ألف نسمة! أمّا عدد اليهود الجزائريين فهو تابو التابوات. وعن البهائيين لا نعرف الشيء الكثير لأنهم يمارسون شعائرهم الدينية في سرية مطلقة خوفاً من أغلبية تعتبر البهائية بدعة وكفر بواحاً. ولو سألنا وزير الإسلام في الجزائر (وليس وزير الشؤون الدينية كما يسمّى خطأ) عن عدد الملحدين أو اللاأدريين في الجزائر لاعتبر السؤال مغرِضاً ومستفزاً. من أين له أن يفهم أو يتصوّر احتمال وإمكانية أن يكون المرء جزائرياً خالصاً وعربياً قحّاً أو أمازيغياً وملحداً أو لاأدرياً أيضاً؟ ينفي وزير الإسلام، السيد غلام الله، وجود أيّ نوع من التضييق الديني في الجزائر، بينما يشير تقرير اللجنة الاستشارية لحقوق الإنسان الذي قدّمه السيد "فاروق قسنطيني" إلى رئيس الجمهورية مؤخراً إلى تجاوزات تتعلق بالمساس بحرية المعتقد[2].

نقرأ ونسمع هنا وهناك عن خطر وصول الإسلاميين إلى الحكم في هذا البلد العربي أو ذاك، وتلك مصيبة فظيعة حقاً. لكن هل ينبغي لتجنب تلك الفظاعة المحتمَلة أن نطبّق برنامج الأصوليين ونخرّب بيوتنا بأيدينا بدلهم؟ ألا يدخل افتعال قضية التنصير في هذا الباب؟ أليس كل الأمر مزايدات وإظهار حرص على الإسلام في محاولة ردّ على الأصوليين الذين يرفعون لواء الدفاع عن الدين وقيمه واتهام الدولة ورجالها بالتقصير في حماية دين الله؟ أليست المسألة مجرّد محاولة افتكاك الورقة الرابحة من أيدي الإسلاميين الملطخة بالدماء، التي تشكل رأسمالهم السياسي كله؟ أليس ذلك التنافس الغبيّ بين الإسلاميين والسلطات على اختطاف الأغلبية الدينية لتحويلها إلى أغلبية سياسية ثمّ إلى طغيان أكثريّ يعطل دخول الجزائر في العصر؟

ربما!

يقول مَثَل جزائري بالعامية "هرب من الحبس طاح في بابو"! ذاك هو حال من يهرب من سجن الإسلام إلى سجن المسيحية في رأيي. ولكن على الدولة أن تحترم حرّيته كما تحترم حرّية المسيحي الذي اختار سجن الإسلام. كان الروائيّ الجزائري "كاتب ياسين" على حقّ حينما لم يرَ في ما يسمّى الديانات التوحيدية أيّ خير: "لعبتْ دوراً مشؤوماً، يقول، هي مصدر شقاء البشرية وعامل اغترابها العميق"[3].

والقوانين ماذا تقول؟ ألا تحمي الأفراد؟

---

[1] ثالث أكبر مدن الجزائر، هي المدينة التي تدور فيها أحداث رائعة "حيدر حيدر" **"وليمة لأعشاب البحر"**، التي حاربها اللاهوت الأزهري.

[2] الجزائر نيوز 2009/7/3.

[3] Kateb Yacine, Le poète comme un boxeur, Entretiens 1958-1989, Seuil 1994

ما ينبغي أن يحارَب جملة وتفصيلاً هو إرغام الآخرين على دخول المعتقل الديني، ومن السذاجة النظر إلى كل ما هو كائن على أنه طبيعي أبديّ. فلكي تكون الدولة مدنية عليها أن تضمن حرية التفكير والاعتقاد، ولا يتأتى لها ذلك إن لم تنتهج حياداً ميتافيزيقياً صارماً. ما جدوى الثرثرة عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان في دولة يقول دستورها في مادته الثانية إنّ دين الدولة هو الإسلام؟ أليست فرية كبرى مقولة "حرية العقيدة" في دولة يقول دينها الرسميّ إنّ من يختار غير الإسلام عقيدة فلن يُقبل منه ويُحشر في الآخرة مع الخاسرين؟ لا خير في الواحدية الدينية فهي كالواحدية السياسية. بكلمات متسائلة: هل يؤمن بالتعدّد السياسيّ من لا يؤمن بالتعدّد الفلسفيّ والدينيّ؟ أليس تعدّد الآلهة شكلاً من أشكال الديمقراطية والتوحيد ديكتاتورية؟

يبدو أن كل الحياة متمحورة حول الدين في العالم العربي...

نعم.. يلتهم الدين الإنسان من جميع جوانبه. فكأن الناس متدينين شبه محترفين. فلا شيء خارج الدين ولا شيء ضده، كل شيء فيه. إيمان المسلم بديهي، وراثي، مجرد اعتقاد يرتكز على المقدس والدوغما. كل الطرق تؤدي إلى المسجد. الوطن كله ذاهب للصلاة، كما تقول الروائية الجزائرية "أحلام مستغانمي" في "ذاكرة الجسد".

قرأت روايتها هذه بالفرنسية وهي لذيذة بالفعل.. ولكن ما الإيمان لدى المسلمين؟

ليس الإيمان إلا انتماء تلقائياً إلى ذاك "الإيمان الرسمي" المفروض. فمثلاً لم يبذر الرئيس الجزائري بوتفليقة المال العام في توزيع المئات من "الحجات" على بهلوانيين يحترفون الرداءة في الغناء والتمثيل وغيرهم من المتسلقين والمتأسلمين، بل سمح لنفسه اقتراح نفس الشيء على الروائي الجزائري اليساري النزعة "الطاهر وطار"!

وما كانت إجابة من تسميه "عمي الطاهر"؟

أسعدَ صاحب "اللاز" ما تبقى من العقلانيين في الجزائر حينما وصف الأمر بأنه تدخل واعتداء على ضميره الشخصي.

شيء مفرح.

أتعرفين لا وجود للشك في بلاد الإسلام، "كلنا مسلمون"، فلا حاجة إلى عقول تتساءل. كل مَن تَمنطق تَزندق، وما الفلسفة إلا التيه في متاهات الشك، والشك مفتاح الشرْك. ينبغي والحال هذه إبعاد العَوَامّ عن علم الكلام. لا تُطرح مسألة الحقيقة بتاتاً لدى المؤمن، لأنه يملكها طازجة. يقدِّم له دينه أكمل طريقة استعمال للوجود، ينهل منها وصفة جاهزة لكل ما تطرحه عليه الحياة والموت من قضايا.

الروحانية العميقة مُلَطّفة دائما بمسحة من التساؤل و الشك أمّا الديانة فهي روحانية تدحرجت نحو أجوبة قاطعة في أغلب الأحيان.

هذا قول جيد جداً.

"لا جدوى من آلات الكومبيوتر، يقول الرسام بيكاسو، فهي لا تقدم سوى أجوبة". لا أثر للفلسفة في المدرسة العربية الإسلامية. تبقى "فريضة غائبة" في مجمل البرامج البيداغوجية.

ألم تَدرس وتدرِّس أنت بالذات الفلسفة في الجزائر؟؟

حينما تنوجد في بلدان قليلة، تكون أقرب إلى الفقه منها إلى حبّ الحكمة. وعلى عدائها التقليدي للدين لم تتمكن في بلدان الإسلام من الهروب بجلدها من هستيريا الأسلمة المهيمنة. لقد تم أسلمتها: يقولون فلسفة إسلامية، دون خوف من التناقض ولا من التفاهة. إن الفلسفة تساؤلٌ مستمر حول الحقيقة. كيف يمكن الحديث عن فلسفة مّا حينما نعتقد أننا نملك الحقيقة المطلقة، وكفى المؤمنين شر البحث والتفلسف؟ من أين جئنا؟ من نحن؟ وإلى أين نحن سائرون؟ تلك أسئلة يجيب عنها القرآن والتفاسير ببساطة لا متناهية. فلماذا نتفلسف إذن؟ لماذا نطرح مسألة اللغة مثلاً؟ ألم يعلّم الله آدم الأسماء كلها؟

والسبب يا أستاذ؟

لقد سحب الفقه البساط من تحت الفلسفة. ولم تعد مهمتها الأخيرة هنا إلحاق "الأذى بالحماقة" كما تقول عبارة نيتشه الجميلة. لا مكان هنا للماذا؟ يدرس الطلاب في "بلدان الله غالب" و"إن شاء الله" شيئا يسميه أساتذتهم فلسفة وما هو بالفلسفة. كيف نسمح لأنفسنا أن نربط الفلسفة بدين مّا ونقول إنها فلسفة إسلاميّة أو يهوديّة...؟ ونحن نعلم علم اليقين أنّ كل الديانات التوحيدية قد جعلت الفكر عموماً والفلسفة بشكل أخص في خدمة الفقه.

وابن رشد؟

ألم يكن مشروعه جَعل الفلسفة خادمة للدين، والعقل خادماً للوحي؟ ألم يعلن عن قصور العقل في حال تصادمه مع الشرع بقوله في "تهافت التهافت" إنّ "الفلسفة تفحص عن كل ما جاء في الشرع، فإن أدركته استوى الإدراكان، وكان ذلك أتم في المعرفة، وإن لم تدركه أعلمت بقصور العقل الإنساني عنه"؟ أليست الحكمة في رأي ابن رشد "صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة... وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة"؟ هل تردد في القول بوجوب قتل الزنادقة؟ ألا يحاول "فصل المقال" عقد تصالح بين العقل والوحي؟ هل هناك رابطة ما يمكن أن تربط بين الفلسفة والشريعة؟

وما الفرق الأساسي بين الدين والفلسفة؟

يهدف الدين إلى خلاص الإنسان، بينما تفتح له الفلسفة طرقا شتى ليخلق لنفسه سعادة خاصة.

سأحكي لك حكاية غربية عن محاولة المزج بين الإيمان والفلسفة!

يالله كما تقول.. احكِ لي..

في مداخلته ضمن "أيام ابن رشد" سنة 1998 التي تقام كل سنة في إكس أون بروفنس، جنوب فرنسا، ذهب محمد عابد الجابري بعيداً جداً حينما اعتبر الرشدية أصل الحداثة.

آه... وأنت لا توافق؟

رغم كل ادعاءات المشتغلين بالفلسفة، عربهم وعجمهم، لا يمكن لتجربة قاضي قرطبة أن تنتج "عقلانية" بأي حال من الأحوال.

والسبب؟

لم تكن لابن رشد لا الرغبة ولا الظروف المناسبة للتحرر من وصاية السماء. ربما كان ضحية عصره، أما الذهاب إلى اعتباره مفكراً عقلانياً فهو ضرب من الكذب على النفس لدغدغتها. فلئن أعاد ابن رشد بعض سؤدد للنظر الفكري فإنه لم يفصم عُراه باللاهوت.

وبصفة عامة كيف عومل العقل؟

هل سمعت بالمعتزلة؟

نعم تلك الفرقة الإسلامية أو المذهب الذي اعتمد أصحابه على العقل أساساً؟

بالضبط يا شاطرة.. هل تعلمين أن كلمة معتزلي أصبحت اليوم شتيمة في المغرب العربي، تعني الكفر؟ سأُسمعكِ لاحقاً أغنية شعبية كلماتها مغربية وتغنّى في الجزائر بألحان شعبية تُستعمل فيها الكلمة كمعرّة.

يا سلام كما يقول المشارقة! وماذا بعد؟

لقد حُوصر الفكر العقلاني الحر وباتت العلاقة المزعومة بين العقل والإيمان زيجة رسمية... ونسي أصحاب الوليمة اللاعقلانية أن ممارسة الفلسفة بأمانة تتناقض تماماً مع الإيمان، وأن الإلحاد مهنة الفيلسوف القح.

لا أريد أن أمتهن الإلحاد... هذا أمر بديهي جداً لا يستحق كل هذا العناء (وتضحكين بخبث). لكن واصل أستأنس بحكاياتك كثيراً، ولكن لتكن الأخيرة في هذه الأمسية، فواجبات مدرسية كثيرة تنتظرني.

هل تعلمين أنه في منتصف ثمانينات القرن الماضي حاول بعض من تعتبرهم الإدارة الجزائرية أساتذة فلسفة (والذين يُدرِّسون "الإسلام هو الحل" في واقع الحال) أن يقودوا حركة ضد تعليم مادّة الفلسفة لطلبة البكالوريا في الجزائر. وقد وقّع العشرات منهم على عريضة تطالب الوزارة بحذفها من البرامج نهائياً.

عجيب أمركم فعلاً! أساتذة فلسفة يطالبون بإلغاء مادتهم؟

الإيديولوجيا الدينية تعمي الأبصار حتى وإن كانت أبصار فلاسفة..

ولكن ما هدفهم؟

كان الهدف ولا يزال حرمان التلاميذ من الحوار الحر والجدل والاختلاف الجذريّ ليسهل دمجهم في إجماع مقيت، ولتنمية الأوهام والمحافظة على الأفكار المسبَقة التي زُرعت فيهم في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة. ولكن الأتعس هو أن نرى أساتذة فلسفة جامعيين يقدّمون أحاديث دينية دعوية على شاشة التلفزيون! هل من الصدفة أن يتعاقب على رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى أساتذة درّسوا الفلسفة في الجامعة الجزائرية، بل كانوا على رأس معهد الفلسفة ثم انحدروا إلى "رأس الحكمة مخافة الله"؟

تُبدين اندهاشاً وتشجعينني على المضي في الحديث بحركة رأسك المعهودة..

إذا كانت مهمة الفلسفة هي مد الإنسان بالشجاعة الفكرية، فقد أخفقت في بلدان الإسلام إخفاقاً ذريعاً. فهي لم تُعِد النظر في النظام الاجتماعي ولا في النظام الأخلاقي ولا النظام الروحي.

وهي لا تقلق بالتالي النظام القائم ولا أصولييه الذين يتخفى وراءهم. وفي غياب الفلسفة والتفكير الحر تستمر المسلَّمات في التوالد وتبقى الذات المتوهِّمة تتوهم، ويتوالى الانحدار نحو التعصب وتزداد معاداة الصيرورة.

تقصد إن اليقين هو مصدر الانغلاق؟

أحسنت التلخيص.. وهكذا يكون التلميذ المسلم في منجى من الشك، لكن ينشأ تحت ظلال اليقين. ولا يتوانى في فرض هذا اليقين على الآخرين حينما يصل إلى سن تسمح له بذلك، وربما قبل البلوغ. فمن يجد الحقيقة الإسلامية لا يحتفظ بها لنفسه. ومما يزيد التعصب تصلباً ذلك الاعتقاد الراسخ القائل بعدم جدوى أي إيمان إن لم يقترن بأفعال. ربما من هنا تأتي الأصولية. إذ ليست هي في النهاية إلا الاعتقاد بامتلاك الحقيقة وعقاب الذين لا يريدون الأخذ بها. "يستلزم كل يقين شمولية معينة. نلبس جلد مجرم في نفس اللحظة التي نعتقد فيها أننا فهمنا كل شيء". يقترب الفيلسوف "سيوران" في هذه الشذرة من الإحاطة الكاملة بحقيقة كل إيمان، فالتسامح وليد الشك والفلسفة، والتعصب ابن اليقين والدين.

وفي رأيكَ كيف يمكن أن تكون الفلسفة؟

لا يمكن أن تكون الفلسفة شيئاً آخر غير انتفاضة راديكالية ضد كل من يريد ممارسة سلطة على وعينا، ضد أن نكون مُراقَبين، مُفتَّشين، مأمورين، كما تقول عبارة "برودون" الخالدة.

❖❖❖

لقد بدأنا لا نواظب على احترام مواعيد دردشاتنا يا عزيزتي!

صحيح لم نعقد جلسة منذ شهر تقريباً، ولكن هذا ليس تقصيراً من جانبي يا مَن تاه في مباريات كأس العالم.

أعترف أنني أجد متعة في ذلك. ولكن ما هي قضية المثلية الجنسية التي أثارت تفكيرك وأشرت إليها بسرعة في غضون الأسبوع الفائت؟

لقد حدّثنا أستاذ التاريخ عن محاكمات تمت ضد مثليين في مصر. كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الأمر في القرن الحادي والعشرين؟

فعلاً... ومع ذلك لا يكف الباحثون عن السبق الإسلاميّ بأيّ ثمن اجترار كلام عن انتشار المثلية في المجتمع الإسلاميّ لإيهام الناس بتسامح حضارة الإسلام "العظيمة" مع المغايرين جنسياً. لكن، هل وجدتِ حرّية جنسية أو تسامح جنسيّ حقيقيّ عند المسلمين، قدامى كانوا أو معاصرين؟

وفي رأيكَ؟

إن كان انتشار المثلية سابقاً وحاضراً بين المسلمين والمسلمات دالاً على استحالة التزامهم المطلق بما يقول قرآنهم وسنّتهم، فإنّه لا يعني أبداً أنّ المجتمع الإسلامي سمح ويسمح بتعدّد الهويات الجنسية والاستمتاع الحرّ بالجسد. هل اختار الغلمان في الحضارة العربية الإسلامية أن يكونوا غلماناً؟ ألم يكونوا لُعباً، عبيد جنس بين أيدي الخلفاء والأمراء والفقهاء وقادة الجيوش وغيرهم؟ ألم يكونوا

يباعون ويقدَّمون كهدايا للأصحاب؟ هل كانت هناك علاقات مثلية ندّية حرّة في فترة الحضارة الإسلامية المسمّاة ذهبية؟

أنتظر منكَ الجواب؟

لا يجيب بالإيجاب سوى مَن كان يحمل تصوّراً قهرياً عن الجنسانية، ذاك الذي لا ينظر إلى "الجماع" سوى على أنه مسألة فاعل ومفعول به، وإلى الحبّ بوجه عامّ على أنّه مجرّد احتكاك بين الأعضاء.

بغضّ النظر عن الجامعيين المتأسلمين الذين ينظرون إلى المثلية بمنظار القرن السابع، ويُجرّمون المثليين كما يأمرهم دينهم، لم يتخلص حتى الباحثين الاجتماعيين غير المنحازين علناً للدين من ذلك التصوّر التراتبي للعلاقة الجنسية، فنجد بعضهم يتحدّث في الجامعات العربية عن المثليين الإيجابيين والمثليين السلبيين بنوع من التراتبية!

هذا وصف تحقيري!

نعم... فعامة العرب تصف الأمر بالفاعل والمفعول به، وبتعبير أهل الحجاز "الواد والعم"، وهو العنوان الذي اختاره الإعلاميّ السعودي "مفيد النويصر" لعمل روائيّ رائد حاول عبره أن يغوص في عالم العلاقات المثلية في أحياء مدينة جدّة، وفضح طبقيتها، بل طبيعتها العنصرية، إذ أنها لا تخرج عن كونها علاقة قاهر ومقهور، قائد ومقاد، مستمتِع ومستمتَع به... تنقل صفحات الكتاب الـ 175 قارئ "الواد والعم" إلى لندن وبالتحديد إلى منطقة سوهو، ليكتشف أنّ المثلية حرية وخيارٌ هناك واستمتاعٌ متبادلٌ، لا قهرٌ واغتصابٌ كما هو الحال في مدينة جدّة وأخواتها العربيات. تحت سماء الديمقراطية تتحرّر الرغبات وتتحقّق وتكون الليبيدو في المجتمعات الديكتاتورية على صورة تلك المجتمعات: ليبيدو قامعة/ ليبيدو مقموعة.

ولماذا هذا غير ممكن في بلاد العرب؟

لا يمكن أن نتحدث عن مثلية حقيقية في وطن عربي يستوحي قوانينه من قواعد فقهية إسلامية منغلقة تَعتبر مشتهي المماثل شاذّاً جنسياً يستحقّ العقاب الشديد. فالمادة 338 من قانون العقوبات الجزائري تقول بالحرف الواحد إنّ: "كلّ من ارتكب فعلاً من أفعال الشذوذ الجنسيّ على شخص من نفس جنسه يُعاقَب بالحبس من شهرين إلى سنتين وبغرامة مالية ما بين 500 إلى 5000 دينار جزائري".

هناك خلط بين الاغتصاب والمثلية؟

وأظن أنه مقصود... لكن لم يُشفِ هذا غليل الإسلاميين، فراحوا يطالبون السلطات بتنفيذ القصاص على المثليين في الأماكن العامّة ليكونوا عبرة للآخرين.

وهل تعاقِب قوانين الدول العربية المثلية؟

في البحرين تصل أقصى عقوبة إلى 10 سنوات سجناً، فضلاً عن العقاب الجسدي أحياناً. وفي الإمارات العربية المتحدة 14 سنة! أما في لبنان فعقوبة المثلية سنة وراء القضبان حسب المادة 534 من قانون العقوبات، وكذلك في المغرب، أما في ليبيا فبالسجن من 5 إلى 7 سنوات، وفي مصر تتراوح بين

سنة وثلاث سنوات. أما في البلدان التي تطبّق الشريعة وحدها لا شريك لها، كموريتانيا والعربية السعودية والسودان واليمن وإيران، فالعقوبة هي الإعدام والجَلد كما اتّفق عليه فقهاء السنة والشيعة على حد سواء.

لا مجال للحديث عن مثلية حرة في بلدان ما زالت تعتمد على الدين في سنّ القوانين. ونعلم أنّ كل الأديان التي تسمّي نفسها سماوية هي معادية للهويات الجنسية المغايرة. فالإسلام يَعتبر المثلية خروجاً عن الفطرة التي خَلق الله، فهي شذوذ جنسيّ وأصحابها من الواقعين في الرذيلة كما وقع قوم لوط في الأسطورة.

المثلية لِواطة، انحراف محرّم بإجماع المسلمين؛ إذ نقرأ في سورتي الشعراء والأعراف آيات تجرّمها صراحة. أمّا في السنة فقد جاء أنّ الرسول قد قال: "غطّ فخذك، فإنّ فخذ الرجل من عورته"، و"لا يَنظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد". و"إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان". لم يرحم المشرع السنّي "لا المارِس ولا المارَس عليه"، رغم أنّ هذا الأخير مغتصَب في أغلب الأحيان في بلدان الإسلام، وسلّط عليهما أشنع العقوبات. فاللائط يعاقَب عقوبة الزاني حسب الحنفية: يُرجَم المحصن ويُجلَد غير المحصن. أما عند الشافعية فحدّ اللواط هو نفس حدّ الزنى.

أما المذهب الشيعيّ فقد اعتبر اللواط من أشنع الذنوب وأفظع المعاصي ومن الكبائر التي تُغضب الله، ولا يستحق مرتكبها "فاعلاً" أو "مفعولاً به" عقوبة أقل من القتل.

لا وجود للمثليين في إيران! صرّح بذلك الرئيس أحمدي نجاد ذات عام في جامعة أمريكية. وجاء في خطبة ألقاها آية الله "موساوي أردبيلي" أمام الطلبة بطهران سنة 1998، وقد كان ممثلاً لحكومة الملالي آنذاك: "إذا قبضتم على مثلّي اتركوه واقفاً ثم اقطعوه نصفين بواسطة سيف، واحرقوه فور موته، أو ارموه حيا من قمة جبل ثم احرقوا ما تبقى من جثته، أو احفروا حفرة واضرموا فيها ناراً ثم ارموه داخلها. لا يجب أن تأخذكم به رحمة ولا شفقة..."[1].

لا ينطق هذا الـ"آية الله" عن الهوى فقد اتفق فقهاء الشيعة على وجوب قتل الفاعل والمفعول به إن كانا بالغين عاقلين، ولا فرق إن كانا محصَنين أم لا، مسلمَين أم غير مسلمَين. أمّا كيفية القتل فالحاكم مخيّر بين أن يضرب عنقيهما بالسيف، أو يحرقهما بالنار، أو يلقيهما من شاهق، أو يهدم عليهما جداراً! بجد؟

بل أكثر من ذلك، فحسب الإمام جعفر الصادق قال الرسول: "مَن جامَع غلاماً جاء جُنُباً يوم القيامة، لا يُنقّيه ماء الدنيا وغَضِب الله عليه ولعنه، وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً". ونقرأ في كتب الشيعة أن الرسول قال أيضا "حرمة الدّبر أعظم من حرمة الفرْج. إنّ الله أهلك أمّة بحرمة الدّبر ولم يُهلِك أحداً بحرمة الفرْج".

---

[1] L. G. B. T. T (موقع)

ربما يكمن في هذا المقطع لـ"الطاهر بن جلون" تفسير ذلك الكره الشديد لا للذي يلوط بل للذي تمارَس عليه اللواطة: "حينما استيقظَ أثناء الليل ليتبوّل، تذكّر تلك الإهانة التي تعرّض لها من طرف الدكتور غارسيا. لم يفهم لماذا أدخل الطبيب أصبعه في شرجه ليطلع على أخبار مثانته. لماذا لا يستعمل التصوير الإشعاعي؟ ألا يكون هذا الـ"غارسيا" فاسقاً؟ يا للعار!"[1].

غريب فعلا أمركم! وماذا بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون في الغرب؟

لم يسلم حتى الذين يعيشون في الغرب من جهل أُسرهم وعقلية أحيائهم المؤسلمة. اسمعي ماذا يقول الطالب الجامعي سليم الذي خضع لمحاولة إعادة تربية: "لم أفهم نيّة أبي عندما أخذني إلى الجزائر. تحولت العشرة أيام التي ذهبت لأقضيها هناك إلى حجز عنيف دام ستة أشهر، عشت فيها محروماً من جواز السفر ومجرداً من أي دينار. أخضعوني لعلاج أسموه علاجاً ذهنياً لتخليصي من المثلية حسبهم". لم ينجُ عند عودته إلى فرنسا من ضرب إخوته بمباركة أبويه إلى درجةٍ غادر المنزل العائلي ولم يعد أبداً[2].

ما هو السبب العميق...

اسمحي لي أن أقاطعكِ، فلم أُكمل كلامي بعد.

في رسالة مفتوحة ومطولة إلى أمه عَنونها بالفرنسية "المثلية كما فسّرتها لأمي"، طرح الكاتب المغربي "عبد الله الطايع" مسألة المثلية في المغرب الأقصى بشجاعة لم يعرفها المجتمع المغربي ولا العربي قطّ، إذ لم يكتف بالجهر بمثليته (كان قد جعلها مادة أساسية للإبداع في كتبه: كآبة عربية، مغربي أنا، أحمر الطربوش)، وإنّما دعا إلى احترام اختيارات الفرد في جميع مناحي الحياة، معلناً أن رياح التغيير آتية لا ريب فيها.

سأقرأ لك مقاطع منها، اسمعي: "أمّاه لست وحيداً في المغرب. لقد تحرّك شيء ما في هذا البلد، نحن نعيش قطيعة حقيقية [...] أنا أكتب، بمعنى أنني أتحمل مسؤولية ما تجاه نفسي وتجاه المجتمع الذي جئت منه. إنني في خضم حرقة السؤال، إذ يخرج الكتاب من الذات ليستنطق العالم والمجتمع. لم يعد بإمكاني الاكتفاء بنصف الحلول، لذا فأنا أتحمل مسؤوليتي كاملة وإلى النهاية".

شجاعة نادرة.. أكمل القراءة من فضلك..

"لا أريد أن أعيش مطأطئ الرأس، يكتب، لست بطلا، فقط لم أعد أطيق النفاق وأضراره الجسيمة في المغرب. لا أقبل أن تقدم صور مختزلة فولكلورية عنا لجلب السياح [...] متى نقطع مع هذه السياسة الشكلية؟ ألا يستحق المغرب أحسن من ذلك؟ حداثة حقيقية؟ ثورة حقيقية في الذهنيات؟ لماذا لا نجرؤ على أن نكون أنفسنا: نتحرر، حتى ولو كان ذلك عن طريق الاستفزاز والفضيحة...".

ما هو السبب العميق المؤدي إلى معاداة الاختلاف الجنسي في رأيك؟

---

[1] Benjelloun T. Au pays, éd. Gallimard, 2009, P. 94
[2] kelma. org

من البداهة والحال هذه أن ينظر المسلمون إلى العلاقة المثلية نظرةً دونية، لأنهم لا يرون فيها سوى لواطا، ميلا من جانب واحد للجنس المماثل، الأضعف عموما. فكأنها اعتداء جنسي على الآخر لا غير. لم تفسح الترسانة الأخلاقوية الدينية المتوارثة الموبوءة بالأحكام المسبقة المجال لنظرة إنسانية أخرى للمثلية تقوم على علاقة ندية متبادلة، وتنظر إلى المثلية كهوية جنسية، وليس كردّ فعل تولده الحاجة يؤدّي إلى اغتصاب جنسي مثلي.

تقول الآية القرآنية الواردة في سورة العنكبوت: "وَلُوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتونَ الفاحشة مَا سبقكُمْ بها مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالَمينَ إلينا أئنكم لَتأتونَ الرجالَ وتقطعون السبيل وتأتون في نادِيكُمُ المُنْكَرَ".

أما على الأرض فتجربة الاستغلال الجنسي التي عانى منها "الغلمان" تاريخياً، والهجمة الدينية المعاصرة التي يعاني منها المجتمع العربي، شوّهتا تصوَّر الناس للمثلية وجعلتهم يسقطون في تمييز جنسي وهموفوبيا، خوف غير عقلاني من المثليين وكرههم، واعتبارهم مرضى ينبغي معالجتهم أو منحرفين يجب ردعهم. لا يرى فيهم الشيخ "القرضاوي" "في الحلال والحرام في الإسلام" سوى كائنات مضرة ينبغي تطهير المجتمع الإسلامي منها، وليس غريباً أن يطالب الشيخ "عبد السلام العاصمي" سنة 2007 بقتل المثليين الجزائريين جميعاً لمنع الفساد، كما يدعي.

المطالبة بقتل الناس لأنهم مختلفون!؟

لا يعلم الشيخان أن الذين يريدان قتلهم لا يشتهون المماثل بمحض إرادتهم، ولا من أجل إغضاب الله. إذ تؤكد الدراسات العلمية كل يوم أن مجموعة مركّبة من العوامل هي التي تفرض الميل الجنسي في مرحلة مبكرة جداً من عمر الإنسان. فالله هو الذي خلقهم هكذا، إذا ما نهجنا منطق الشيخين! لكن هل سمع الشيخان عن مثلية الحيوانات؟ هل لحم الحيوان المثليّ حرام أم حلال؟ هل تجوز التضحية في عيد الأضحى المقبل بخروف مارس اللواط؟

سؤالك طريف فعلاً، على مأساته، ولكن ما هو واقع المثليين في البلدان العربية؟

ينبغي التفريق بين الأفعال الجنسية المثلية المناسباتية وبين التوجه المثلي الأصيل. ففي الوطن العربي هناك مثلية موسمية نتيجة الجدران المنصوبة بين الذكور والإناث. وهذا الفصل التعسّفي بين الجنسين المفروض من طرف الدين هو المسؤول الأول عن تكاثر المثليين المزيّفين.

مثليين مزيفين؟

المجتمعات العربية سجون تمتلئ بمثليين موسميّين، هي مثلية مؤقتة عابرة (قد تصبح دائمة عند البعض) تكون مجرد نزوة مرحلية، إشباع حاجة عضوية، تفريغ كبت، وليس خياراً حرّاً واعياً عاطفياً. كما نجد بعض النساء يملن إلى السحاق لإشباع رغباتهن الجنسية للمحافظة على عذريتهن حتى الزواج.

لهذه الاعتبارات يمكن القول إن "الممارسات المثلية" هي أكثر انتشاراً في العالم العربي الإسلامي من غيره، إذ أن أغلبها مجرد تعويض عن تقلص فرص اللقاء مع الجنس المغاير. لا أبالغ كثيراً إن كتبت أن كل عربي (ة) مسلم (ة) قد يكون مثلياً أو كان أو سيكون، ليس لأنه عربي أو مسلم وإنما لعيشه وسط

ظروف ومعتقدات تفصل بين الجنسين التي كثيراً ما تفرض عليه أن يكون مزدوجاً جنسياً ليتمكن من تلبية بعض رغبات جنسية غير مؤطرة في الزواج.

وأخيرا هل تعلمين أنّ المثلية الجنسية يُعاقَب عليها بالموت في أربع دول عربية هي السودان، موريتانيا، السّعودية واليمن؟

إنه لأمر مقزز! لكن هناك مسألة أخرى تتضارب فيها الأقوال، وأصدقك القول أنني ليس لي وقتاً كافياً للإطلاع عليها بتعمق...

وهي؟

فكرة الجهاد في الإسلام! فإضافة للجهاد القتالي هناك من يقول إن الجهاد روحي، أي يراه بعين أخرى، فما الأمر؟

إنه طلب للرزق وخوف من الجهل أحياناً. فقد اعتاد مثقفو الإسلام اليوم، وغيرهم من المداهنين، تقديم الجهاد في سبيل الله على أنه معركة ضد الأهواء، ضد النفس الأمّارة بالسوء، متناسين جانبه الحربي الذي يخلق مشكلة عويصة اليوم. لكن هل الاستمرار في إخفاء الوجه القتالي وإظهار الوجه الروحاني للجهاد كفيل بنشر الطمأنينة وحسن الجوار؟ وكيف ينظر الفقهاء والأصوليون وأغلبية المسلمين إلى المسألة؟ أهو حرب مقدسة ضد أعداء الله ورسوله، أم هو رياضة روحية لمقاومة وسوسة الشيطان الرجيم؟

ها قد أشكلت المسألة، وبعد...

في المسلسلات الرمضانية، في الأفلام السينمائية، في المسرحيات، في اللغة اليومية، في المدرسة والجامعة... يُقدَّم الجهاد ويُدرَّس ويشاع دائماً على أنه حرب ونضال ومجاهدة ضد أعداء الإسلام. إن هذا المعنى يتجاوز كثيراً ذلك المعنى الأخلاقي البسيط، ليشمل الصراع الفردي والجماعي ضد غير المسلمين.

هكذا دفعة واحدة يا رجل!

لا أحد يستطيع أن ينكر هيمنة المعنى المادي الحربي على أرض الواقع التاريخي: "مَن رأى منكم منكَراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". هذا حديث صحيح رواه مسلم، نسمعه في خطب الجمعة وندرِّسه لتلاميذ المدارس ونردِّده على أمواج الأثير. وبما أن الإيمان هو ما وقر في القلب وما صدقه العمل، وبما أن الإيمان لا معنى له بدون عمل في الإسلام، فمن الواجب على المؤمن أن يفعل شيئاً ليصح إيمانه. فقد دعا الدين الجديد إلى الجهاد منذ البداية، فالحرب ضد الكفار ليست عادلة فحسب، بل هي واجب وعمل صالح يُدخِل الجنة. في "إسلام ويب" نقرأ الشرح التالي للحديث: "ترتبط خيرية هذه الأمة ارتباطاً وثيقاً بدعوتها للحق، وحمايتها للدين، ومحاربتها للباطل؛ ذلك أن قيامها بهذا الواجب يحقق لها التمكين في الأرض، ورفع راية التوحيد، وتحكيم شرع الله ودينه، وهذا ما يميزها عن غيرها من الأمم، ويجعل لها من المكانة ما ليس لغيرها، ولذلك امتدحها الله تعالى في كتابه العزيز حين قال: "كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"" (آل عمران: 110).

وكل المسلمين يرون ذلك؟

لم يختلف المسلمون في وجوب تعميم دينهم على الناس أجمعين، لهذا فمِن البداهة أن يكون الجهاد هو الطريق الأمثل لنشر الإسلام في كامل المعمورة. لئن وجَد قارئ القرآن آيات تدعو إلى التسامح حيال المسيحيين واليهود، فهو يعثر أيضاً على كثير من الآيات الأخرى التي تدعو إلى قتال هؤلاء المؤمنين. أما غير ذلك من البشر فليس لهم من خيار سوى الدخول في الإسلام أو الهجرة أو الموت: "يا أهل الكتاب لِم تُلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون" (3: 71)، "فلا تُطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً" (25: 52)، "يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير" (9: 73؛ 66 :9)، "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم" (2: 120)، "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتُلون ويُقتَلون" (9: 111)، "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون" (9: 29). "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين" (9: 123). "من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه به مات على شعبة مِن نفاق"، رواه مسلم.

هذا في النصوص، ولكن في التاريخ الفعلي ماذا كان؟

مع مرور الزمن ازداد الجهاد في سبيل الله أهمية، وعزّزته الغنائم. وكان الجهاد التصادمي هو أداة فتح الأمصار وسبب تقدم الإسلام جغرافياً. ولئن حاول بعض المتصوفة إعطاء الكلمة مدلولاً روحياً فإن المتصوفة لم يكن تأثيراً حاسماً في التاريخ الإسلامي، فلم يكن لهم لدى المسلمين من الاعتبار إلا قليله، كما يعرف الجميع.

من إفرازات الجهاد محنة أهل الذمة، أما في الداخل فكان الجهاد دائماً وسيلة لملاحقة المتمردين و"المرتدين". فابتداء من القرن العاشر، فَرضت فكرة الجهاد الهجومي الدائم في سبيل الله نفسها. ونجد ذلك مفصلاً ومؤصلاً في كثير من المصنّفات التراثية ابتداء من "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية" الذي يحدثنا فيه ابن تيمية عن فضائل الجهاد المذكورة في الكتاب والسنّة، والتي لا تحصى. فهو أفضل من الحج والعمرة والصلاة والصوم. إنه من أهم الفروض الإسلامية، كما يقول الشيخ، فهو قتال كل مَن يقف في مواجهة دعوة الإسلام. ولم يتغير الأمر في جوهره من ابن تيمية إلى رشيد رضا، تلميذ محمد عبده الذي كفّر من أسماهم المتفرنجين والملاحدة في العالم الإسلامي كسلامة موسى ومحمد حسين هيكل وطه حسين وغيرهم كثر. فِكر نشره تلميذه حسن البنا على أحسن ما يرام، كما يعرف الجميع. أما كتاب المودودي "الجهاد في سبيل الله" فقد غدا إنجيل الأصولية العابرة للقارات.

ولكن ألا يوجد شيوخ دين مسالمين؟

بلى، مثل الإمام مهدي شمس الدين وجودت السعيد ومحمد شحرور... ولكن لم يكن لدعوتهم باعتماد اللاعنف للدعوة إلى الإسلام الأثر الحاسم في تغيير مفهوم الجهاد.

ولماذا؟

ببساطة شديدة، لأنها كانت بعيدة عن الواقع النصي التراثي.

يحتل الجهاد حيزاً معتبَراً إذن؟

إذا تحدثنا عن الجهاد وأصحابه اليوم، فيمكن أن نملأ من الصحف ما لا يتصور. لكن نكتفي بمن وُصف بالاعتدال ونُعت بألطف النعوت، أقصد الشيخ يوسف القرضاوي الذي قال في شهر نوفمبر/تشرين ثاني 2008: "أتمنى أن يصل ماكين إلى الحكم لكي يستمر داعي الجهاد في نفوسنا، ولكي لا نركن، فتمسّنا النار".

و كيف تتم اليوم الدعوة إلى الجهاد ؟

يكفي الباحث عن الفتوى الجهادية أن يكتب كلمة "جهاد" على أحد محركات البحث ليقرأ ما طاب له ولذ من أدب القتال والبلوى في سبيل الدين...

أصبحت صورة الشهيد حاضرة بقوة في الوجدان الإسلامي، إذ مجّد المحارب الشهيد، وعُدّ مِن جند الله كل مَن سقط في معركة تعتبر أنها توسع الإسلام. فالجهاد بالسلاح من أجل امتداد الإمبراطورية الإسلامية جزء لا يتجزأ من تعاليم القرآن. لهذا ما زال الجهاد قائماً إلى اليوم وعلى مستوى عال. بل وعلى أرفع المستويات، فهذا رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران محمود أحمدي نجاد يقول: "إذا أردنا أن نبني بلدنا، وأن نحافظ على عظمتنا وحل كل مشكلاتنا الاقتصادية، فعلينا بالشهادة. فهي أقصر الطرق للوصول إلى قمة النعمة"[1].

وهو الذي يريد أن تصبح بلده قوة نووية؟

تصوري حجم الكارثة يا عزيزتي لو حقق ما يتمنى!

لكن دعيني أعود بك إلى التراث الجهادي. لقد سَمع عمر بن الخطاب الرسول يقول: "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سَلّط الله عليكم ذلّاً لا ينزعه شيء حتى ترجعوا إلى دينكم"، رواه أحمد وأبو داوود. إن الأحاديث التي تذكر فضل الجهاد والمجاهدين وبيان ما أَعدّ الله لهم من المنازل العالية، وتلك التي تُحذّر وتُرهّب من ترك الجهاد كثيرة لا حصر لها. ففي الصحيحين جاء أن الرسول قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها"، رواه أحمد والنسائي. وعن أنس قال النبي: "جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم". ونقرأ في سورة محمد، الآية 35: "فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون".

وأين الجهاد الروحي إذن؟

سيطرت فكرة الجهاد الهجومي على وعي ولاوعي المسلمين. تلك الفكرة القائلة إن الجهاد لا يقتصر على رد العدوان عن المسلمين بل إن علته الأهم هي مجاهدة الشّرك بالله، وأن الجهاد يرمي إلى إظهار الإسلام على الأديان. لذلك فشل الكثيرون في محاولتهم تلطيف الجهاد وإخفاء جانبه القتالي،

[1] Le Monde des religions, juillet- août 2008 □

لأن فكرة الجهاد القتالي هي الأقرب إلى روح الإسلام من غيرها، لما لها مِن سند في القرآن والسنّة، كما رأينا سابقاً.

إذن الهدف الحقيقي للجهاد هو نشر الدين؟

نعم بالتأكيد، فقد تأسس الجهاد أصلاً على فكرة احتلال العالم كله وإخضاعه إلى حكم الشرع من قِبل خير أمة أُخرجت للناس، الأمة التي اختارها الله لتقود الإنسانية قاطبة. هذا هو المعنى الحقيقي للجهاد وكل ما ابتعد عن هذا تضليل مقصود. فلا جدوى من المناورات اللفظية، والغش التقووي. فالجهاد هو في قلب الإسلام. وبه انتصر الرسول على المشركين. لهذا فأنْ يَقتل المسلم أو يُقتل في سبيل الله لهو من صلب الدين. واستناداً إلى ذلك يقسم الفكر الإسلامي، قديمه وحديثه، البلدان إلى نوعين: بلدان مؤسلمة، وبلدان في طريق التأسلم. وهو ما يُعبَّر عنه في الخطاب الإسلامي بدار السلم وبدار الحرب.

في شهر أبريل/نيسان من سنة 2008 نَظّمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مسابقة كتابية شبانية كان موضوعها: طوّر (لا حظي وليس ناقش!) الفكرة التالية: "إن شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة". وفي الجزائر دائماً يتوسط ساحة الأمير عبد القادر تمثالاً رائعاً للأمير ولكنه بدل أن يحمل كتاباً وهو الشاعر المتصوف وَضع النحات في يده سيفاً مسلولاً مهدِّداً. هل تعلمين يا قرة عيني أنه يستحيل أن تجِدي مدينة عربية حياً أو مدرسة أو شارعاً... لا يحمل اسم الجهاد؟ هل هذا كاف أم تريدين الانتقال إلى موضوع آخر؟

لقد اطلعت على كثير من السجالات التي كُنتَ طرفاً فيها، ووجدت أن البعض يتهمك بأنك تدعو إلى الفصل بين الدين والحياة العامة فوراً. وهو أمر يتطلب قروناً لإنجازه في اعتقاد ناقديك؟

"كيف نصل إلى التنوير"؟ يؤكّد البعض ضرورة العلمانية التي تعني فصل الدين وتوابعه عن الدولة. لكنهم لا يؤمنون بفصل قد يأتي من خارج الإسلام، لأنهم يفترضون أن المجتمعات الإسلامية هي ذاتها في كل مكان وفي كل زمان، وسيبقى المجتمع مؤمناً بابن تيمية وفتاويه وبسيد قطب رمزاً له وإن تمّ إبعاد الدين عن الشأن العام.

أليست هذه حقيقة؟

هي نصف الحقيقة... لا وجود لذلك المجتمع الإسلامي الافتراضي، هناك مجتمعات عربية متعددة، لكل منها علاقة مختلفة بالحداثة هي التي تكوّن هويتها الحالية. فلا ينبغي وضع تونس والسعودية مثلاً في سلة واحدة وإن جمعهما الإسلام والعروبة. أما القول بأن المجتمع "الإسلامي" يظل متمسكا بابن تيمية وسيد قطب... حتى وإن فصلنا الدين عن الدولة، فهي أطروحة ثقافوية، بل جوهرانية، لا تؤمن بديناميكية المجتمعات، بل هي إلى الحكم المسبق أقرب. لكن السؤال الذي ينبغي طرحه قبل هذا وذاك هل هناك دولة فعلاً حتى نطالب بفصلها عن الدين؟

تنفي حتى وجود الدولة؟

لا يعدو أن يكون الحديث عن الفصل وضرورته سوى كونه مساهمة نظرية في بناء الدولة ذاتها. الحديث عن "الدولة" في الوقت الراهن في البلدان العربية هو على سبيل المجاز فقط. ما أريد أن يُفصَل

اليوم هو الدين عن السلطة، تلك السلطة التي تشتري الشرعية بالشريعة، تقايض أسلمة المجتمع بالمحافظة على امتيازاتها بمباركة كثير من الكَتبة.

لم أكن أتصور تورط السلطات القائمة في الأزمة إلى هذا الحد، ولو أنني أعرف أن كل الأنظمة تحافظ على بقائها على حساب ما تؤمن به أحياناً.

ليس هذا فحسب بل يعتقد بعض الرسميين في الغرب وحتى بعض المفكرين أن هذه الأنظمة محكوم عليها أن تكون لا ديمقراطية.

ولماذا؟ هل تلك حتمية لا مفر منها؟

لا... لأنهم يعتقدون أن الأنظمة العربية توجد الآن في حالة مواجهة ضارية مع الإسلاميين؛ وذاك لا يساعد على فتح المجال الديمقراطي.

فكرة معقولة، ألا تظن بأنهم على حق، ألم يستغل إسلاميو الجزائر ذلك الانفتاح في بداية التسعينيات لخداع الجماهير الجزائرية بشعار "الإسلام هو الحل"؟

لقد استغلوا ذلك فعلاً، وتمّ ما تمّ لغياب مؤسسات جمهورية حقيقية. ما نُظّم في تلك الظروف الفوضوية ليس انتخابات ديمقراطية بل لا تمت العملية برمتها إلى النهج الديمقراطي بصلة إذ الجبهة الإسلامية للإنقاذ ذاتها التي فازت لم تكن قد عقدت مؤتمراً حزبياً بمعنى الكلمة، فلا أحد كان يعرف برنامجها السياسي الرسمي! هذا إذا لم نعيد النظر في وجود هذا الحزب القانوني أصلاً باعتبار أن القانون الجزائري لا يسمح بإنشاء الأحزاب على أساس ديني أو عرقي!

لا أوّد الاعتراض على ما جاء في وجهة نظركَ، بل أوافق على كل ما قلتَ، ولكن رغم هذا وذاك لا يمكنني أن أخفي عدم هضمي لإيقاف المسار الانتخابي! لقد وضع أغلب الجزائريين الذين صوتوا ثقتهم في جبهة الإنقاذ الإسلامية، وتلك هي اللعبة الديمقراطية. فماذا تقول؟

نظرياً لا يخلو ما تفضلتِ به من وجاهة، إذ لا يمكنكِ المغامرة بتنظيم انتخابات تشريعية تعدّدية حرة ثم تغيري موقفكِ لأن نتائج دورها الأول تخيفكِ أو لا تعجبكِ! لا يمكن أن أقول لكِ إنه كان من الأفضل فعل كذا أو كذا، فلا يمكن إعادة التاريخ إلى الوراء. ولئن كنا نعرف اليوم ما حدث فإننا لا نعرف الذي لم يحدث، والذي كان ممكناً أن يحدث. ما آمله هو ألا يفلت من العقاب كل من ارتكب جرماً في حق الجزائريات والجزائريين والأجانب. أما فيما يخص الديمقراطية فلي وجهة نظر أخرى.

وجهة نظر أخرى! ماذا تقصد؟ بدأت تخيفني. هل أنت ضد الاقتراع العام أم ماذا؟

لا يا عزيزتي، اطمئني. ما أريد قوله هو أن للديمقراطية شروطها، فهي لا يمكن أن تعيش إذا لم تدعمها مؤسسات مستقلة تقطع الطريق أمام المغامرين والمتعصبين الإيديولوجيين. هل تعرفين أن الديمقراطية الحديثة حينما ظهرت في القرن الثامن عشر لم تكن مباشِرة بل كانت نيابية، سواء أكان ذلك في فرنسا أو في بريطانيا؟

وما الفرق بين هذا وذاك؟

لقد استثنت الديمقراطية في بداياتها "الطبقات الخطيرة" على الاستقرار من المواطنة الكاملة.

ومَن كانت تلك الطبقات التي تمثّل خطراً على الاستقرار؟!

الطبقات الشعبية الغارقة في الفقر والأمية والعنف.

هذا شيء محزن وفظيع حقا!

هل تعرفين أنه لم يُعتَرف بالاقتراع العام هنا بفرنسا سوى في سنة 1848؟

أعرف، وللرجال فقط، أما النساء فلم يحصلن على حق الانتخاب إلا في سنة **1944**، بينما حصلت التونسيات على هذا الحق قبل ذلك بسنوات...

جيد جداً... لم يذهب افتخاري بما حققته المرأة في تونس أدراج الرياح!

وأعرف أيضاً أن الاقتراع لم يُعمَّم بين عامة البريطانيين إلا سنة **1918**.

ولكن هل تعرفين لماذا هذا التأخير؟

لا، ولكن أستطيع أن أستنبط من تلميحاتك السابقة أن الإنجليز والفرنسيين قد انتظروا التعميم ريثما تتحسن أوضاع الطبقات الشعبية مادياً وثقافياً. أي حتى يتعلم هؤلاء الاختيار الحر.

هذا تفسير معقول للغاية.

هل يعني ذلك ضرورة تأجيل الديمقراطية في البلدان العربية إلى ذلك اليوم الذي نعتقد فيه أن الشعب بات ناضجاً للممارسة الديمقراطية المباشرة؟

ليست لي إجابة جامعة مانعة. إلا أنني أعتقد أن الإسلاميين يمثّلون اليوم أخطر فئة تهدد السلم الاجتماعي في المجتمع العربي.

بغض النظر عن مثال الجزائر التي مرّت بظروف معقدة، ألا تواجه الدول العربية الأصوليين الإسلاميين؟

شكلياً نعم، لكن في واقع الأمر من السهولة أن تكون اليوم إسلامياً في الدول العربية أكثر مما لو كنت علمانياً، فالعلمانيون هم المقاوِمون الحقيقيون لأنهم يقاومون ثقافة بكاملها، وأقصد فكرة الدول الدينية المترسبة في وعي الناس ولا وعيهم، وكذلك السلطات السياسية. أما الأصوليون فبغض النظر عن الذين يستعملون العنف فهم يدعون إلى إيديولوجيتهم في مؤسسات الدول نفسها، فلا يقاومهم أحد بل تُعبِّد لهم الدول والناس الطريق لنشر دعوتهم. بل لقد أُدمجت خطابات الأصولية ضمن الخطاب الرسمي ذاته، كما رأينا وسنرى. فمن السهولة اليوم ملاحظة تراجع قوة السلطة السياسية وتقدم قوة السلطة الدينية في أكثر من مكان.

في وسائل الإعلام يبدو العكس من ذلك تماما!

لا تشتبك الدولة العربية فعلياً مع الأصوليين إلا شكلياً، أما في واقع الأمر فهذه الأنظمة حليفة للإسلاميين بشكل من الأشكال. فهي، أولاً، لا تختلف معهم جوهرياً من الناحية الإيديولوجية، وثانياً تستعملهم كبعبع تخيف به كل من يطالب بالديمقراطية أو بالتغيير. والأخطر من ذلك أن هذه الأنظمة قد عقّدت الأوضاع بشكل رهيب حيث مهدت بوعي وبدون وعي، وبخبث أحياناً، الطريق للأصوليين ليكونوا أشر منها لو سقطت.

ميكافيلية خطيرة..

نعم الغاية تبرر الوسيلة. يبيّن لنا الواقع كل يوم يا عزيزتي أن ما يسمى "دولة عربية" هي التي تحارِب الحداثة وتطيل من عمر اللاعقلانية بتمويلها وتشجيعها للفكر اللاهوتي، وفي الآن ذاته تحارب الإفرازات العنيفة لما تغرسه في وعي الناس ولا وعيهم عن طريق مدارسها وإعلامها ومساجدها وكتابات مثقفيها الأصوليين وكذلك "المستنيرين الإسلاميين" الذين يعقد عليهم الكثيرون الأمل في إقامة علمانية خاصة تتحقق بالتدرج على أرض العرب.

وما هي أطروحة هؤلاء؟

يدافعون عن فكر التوفيق بين الإسلام والحداثة، مؤمنين بإمكانية الوصول إلى علمنة المجتمع وتنويره انطلاقاً من التراث الإسلامي، الذي سبقهم إليه رجال النهضة. ونعلم أن الحال التي وصلنا إليها اليوم هي نتيجة ذلك الحلم الذي بدأ نصف عقلانياً مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لينتهي لاعقلانياً مع رشيد رضا الذي أفرز حسن البنا، وهكذا انكفأت النهضة إلى الأصل الذي انطلقت منه. لهذا حينما سيجد التوفيقيون الجدد أنفسهم أمام اختيار حاسم، حينما يستنفذون كل زادهم التراثي، سيعودون إلى أصلهم كما عاد الذين من قبلهم، وحينها يصبح الغلاة الذين يداهنونهم اليوم أغلبية، فيجعلون الحداثة كعصف مأكول.

ولكن ما هو سر تأكيدكَ دائماً على عدم سهولة إمكانية الاعتدال في الدين؟ وقد قرأتُ أشياء طريفة في هذا الباب..

طريفة تقولين!

مثلاً عن التقاء رؤيتك مع رؤية الداعين إلى إسلام العنف، والترويج لهذا النمط من الإسلام على أنه هو الإسلام. فضلاً عن اتهامكَ لمن يخالفونكَ الرأي بالنفاق والخوف!

استعملتُ كلمة نفاق أو مجاملة أو خوف في مواضع محددة، ولم أعممها أبداً على كل المخالفين في الرأي. لا يستطيع أحد أن ينكر بأن الساحة الإعلامية تعج بالذين ينافقون الحكام ويجاملون القراء والمشاهدين والغوغاء، ويخافون على مراكزهم وامتيازاتهم. وهو أمر يستحق لوحده صفحات وصفحات، إذ هو متعلق بمسألة تكوين النخب في البلدان العربية وارتباطها بمؤسسات حكومية لانعدام المؤسسة العمومية المستقلة.

يتحدث البعض عن مجموعات بشرية وجدوا فيها إسلاماً معتدلاً، ويذكرون مفكرين نظّروا لإسلام مستنير ممكن. لكن السؤال المطروح هو ليس في وجود أو عدم وجود مسلمين عقلانيين، بل هو: هل هم عقلانيون لأنهم مسلمون أم هم كذلك لأنهم حداثيون وإن لم يشعروا؟

آه جميل ولكن هات التفاصيل..

ينبغي أن نفرّق بين الإسلام والمسلمين أو المنحدرين من أصول إسلامية. الإسلام ليس المسلمين الذين يؤمنون بالعلمانية وحقوق الإنسان والمساواة بين الرجل والمرأة... الخ، الإسلام شيء ومكاسب الحداثة التي ينعم بها المسلمون شيء آخر تماماً. فتلك الفتاة التي لا ترتدي الحجاب، لا تفعل ذلك لأنها مسلمة، بل لأنها "امرأة حديثة". وكذلك المسلم المؤمن بالمساواة بين الجنسين، فهو مساواتي لأنه "رجل حديث" لا لكونه مسلماً. بل قد يكون كذلك في بعض المرات لأنه يجهل تعاليم دينه، ليس إلا.

كيف يمكن أن تنفي وجود مسلمين معتدلين؟

لا يوجد مؤمنون معتدلون. يمكن أن يكون هناك اعتدال ثقافي لا ديني. إذ يَجبر الدين المؤمن به أن يقبل بكل أوامره ونواهيه باعتبارها مقدَّسة، لا أحد يستطيع تغيير عدد ركعات الصلاة وشهر الصوم... الخ. فعلى كل مؤمن أن يقبلها كما هي وإلا سيكون بكل بساطة خارجاً عن الإسلام. تلك هي المسألة التي تجعل الإسلام في صراع مرير مع الحداثة. ويظهر ذلك جلياً في النصوص وفي سلوك المسلمين داخل مجتمعات الحداثة. فهم يؤمنون إيماناً قاطعاً أن دينهم هو دين الخلاص الوحيد، فليس من السهل التصرف فيه ليتوافق مع الحداثة التي يعايشون. فمِن المستحيل والحال هذه إبداع إسلام آخر متجذر في قاعدته الفقهية السلفية ومتلائم مع معطيات الزمن الحاضر في نفس الوقت. لكن حتى وإن تم ذلك افتراضياً، هل يبقى الإسلام إسلاماً؟ هل الإسلام المجدَّد هو الإسلام؟

ولماذا لا يكون الأمر كذلك؟

كي يتصالح الإسلام مع العصر يا صديقتي ينبغي أن تتغير فيه جوانب أساسية. وسواء أكان هذا التغيير اليوم أو غداً، سيرفض المسلم الشامل الأمر جملة وتفصيلاً، كما لا يزال اليهودي والمسيحي الشاملان يرفضان ما لحق بالديانتين مِن تغيير في الجوانب المتعلقة بالحياة العامة.

وقياساً على ذلك؟

لا يمكن تحقيق العلمانية قبل أن يتحول المسلمون الشاملون إلى أقلية. فهل تساهم كتابات النخب المؤمنة بعقلنة الإسلام واستعصار العلمانية من التراث الديني في تقليل عدد المسلمين الذين يؤمنون بشمولية دينهم، أم تساهم في زيادة أعدادهم؟

سؤال جيد والجواب؟

لا يكون إلا جيداً (ونضحك معاً)

أعتقد أن تجربةَ ما يقارب القرنين قد أثبتت أن محاولات التوفيق بين الدين والدنيا قد باءت بالفشل، بل جاءت بعكس ما كان مُنتَظراً منها: لقد تم عن طريقها أسلمة مخيال الجموع.

إن كان ما تقول صحيحاً يا سيدي، فما هو البديل؟ هل هو أن نقف أمام المسلمين ونقول لهم إن كعبتكم وهمٌ، وإسلامكم وهمٌ، وما تعبدون منذ قرون وهمٌ؟!

لا يمكن لعاقل أن يطلب ذلك، وإلا أصبح كاللاعقلانيين المطالبين بما لا يمكن تحقيقه، كتحريم الاستمناء على المراهقين مثلاً (تُبدين بعض خجل) مستندين إلى أحاديث وتراثيات كثيرة. فليعبد كل إنسان ما يحلو له، وليُقِم الطقوس التي يريد، فهذه حريات مقدّسة ما دامت متعلقة بأصحابها ولا تُقلِق الآخرين. لذلك فلا نقول أبداً لأحد إن كعبتك وهمٌ. فلا أحد يملك الحق في انتقاد حجّاته أو عُمراته مهما كثرت. من البديهي جداً أن النقد لا يمس الدين الفردي، أي الدين بالمعنى الإطلاقي، أو لنقل التعبدي الخاص، بل ما لا ينبغي قبوله هو دين الجماعات الذي يريد أن يبسط رؤيته ويفرض تنظيماً ما للمجتمع مدّعياً أنه يحقق رغبة الله على الأرض. هل تقبلين أن يتم اختصار هويتكِ إلى هوية دينية أحادية؟ وتحويل هوية أمة كاملة إلى هوية دينية على حساب الهوية المدنية؟

طبعاً لا!

وكمواطنة لك الحق في انتقاد ورفض أن ندفع من خزينة الدولة تكاليف الحج لمهرجين ومغنين وغيرهم كما يحدث في الجزائر وأخواتها. أن يحتفل الناس بعاشوراء في بيوتهم شيء أما أن نفرض على الآخرين رؤية طقوس الدم وجلد الذات في الشوارع.. وعلى شاشات التلفزيون العراقية اليوم، فهو أمر مرفوض لأنه، بكل بساطة، يمجد العنف الجسدي وينمي الشعور بالثأر. في مصر مثلا يُحارَب تنظيم النسل بمبادئ الشريعة، وهكذا يزداد عدد المصريين بشكل غير عادِيّ، ويضطرون للعيش على مساعدات الكفار. تبنى المساجد بشكل فوضوي وبأعداد خيالية تفوق الحاجة بأضعاف وبتكاليف باهظة..!

هل يمكن مثلاً أن تلغى عقوبة الإعدام في البلدان الإسلامية؟

في وقت تقترب فيه الإنسانية المتحضرة من التخلص النهائي من هذه العقوبة المشينة تتمسك المؤسسات الدينية الرسمية في الجزائر مثلا بعدم وقف تنفيذ تلك العقوبة المشينة. صرح رئيس المجلس الإسلامي الأعلى أنه من المستحيل أن يوافق على إلغاء العقوبة كما اعتبر المدافعين عن إلغائها من الجاهلين بتعاليم الإسلام. أما رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد كفّر في بيان له الحقوقيين المُصرِّين على مخالفة أحكام القرآن بإلغاء الإعدام. وقد اعتبر ذلك ردة وخروجا عن الملة يحرم صاحبه أن يدفن في مقابر المسلمين ويطلّق من زوجته بل اعتبر القصاص عبادة مثل الصيام والحج ولا يدخل في باب المعاملات![1]

عجيب!

ما العمل أمام نصوص واضحة لا تتعلق بالحياة الخاصة فحسب بل تفرض تشريعاً محدِّداً للناس أجمعين؟ هل نتمادى في ممارسة قتل النفس البشرية حتى يظهر ذلك "النابغة المُنتَظر" في علم التأويل لتخليص رقاب الجزائريين من مشنقة مجلس إسلامهم الأعلى وجمعية علماء مسلميهم؟

تلك أمثلة بسيطة من بين ألوف. هل ننتظر مئات السنين لمعالجتها بدعوى أن المجتمع لم ينضج بعد؟ هل أقبلُ تزويج طفلة في التاسعة في انتظار أن يفهم مجتمعي أن هذا الأمر مناف اليوم لأبسط حقوق الأطفال؟ ووو

وما هو الحل في رأيكِ؟ ومِن فضلكِ لا تحاول الإجابة بسؤال آخر.

أبداً لا أجيبكِ بسؤال!

أشكركَ.. تفضل.

سأجيبكِ بسؤالين اثنين (تبحلقين مستفسِرة):

هل ننظر إلى مجتمعنا كما هو كائن ونحاول تعقّل ثم تبرير ثقافته؟ أم ننظر إليه كما ينبغي أن يكون ونؤمن بإمكانية تغييره؟

[1] جريدة الخبر الجزائرية 2009/1/14.

لن أجيب. وسنتوقف عن الحديث اليوم لنلتقي بعد يومين لتحدثني عن العنصرية في الإسلام وعن مأساة العبيد في الحضارة العربية الإسلامية وموقف الإسلام منها. فلقد وقع بين يدي مقال منشور في مجلة فرنسة شهيرة يتحدث عن الموضوع.

❖❖❖

تحول اليومان إلى أسبوع. ما هو سؤالك بالضبط؟

لن أسأل قبل أن تعدني بألا تجيب بسؤال.

أعدك...

حول تاريخ الرق في الإسلام أريد أن نتحدث وليس لي سؤالاً محدداً!

طيب... هل تعرفين أنه لم تلغَ العبودية قانونياً في موريتانيا الإسلامية مثلاً إلا سنة 1980. أما في العربية السعودية فكان الإلغاء سنة 1962، ولكن في تونس تم منعه سنة 1846 لكنه لم يصبح فعلياً إلا في سنة 1881 بالتزامن مع فرنسا. أما الدولة العثمانية، التي كانت تمثل الخلافة، لم تلغِ الرق رسمياً إلا مع نهاية القرن التاسع عشر، وقد كان المنع حينها شكلياً ليس إلا...

هل يتحدث العرب والمسلمون عما اقترفه أجدادهم من جرم تجاه العبيد أم يتجاهلون وجود عبودية في تاريخهم؟

اعتُبرت العبودية دائما تابو التابوهات، فحتى المستشرقون الغربيّون تجنّبوا الخوض في الحديث عنها في العالم الإسلامي موضوع دراساتهم الأصلي! فلا لويس ماسينيون ولا جاك بيرك اعتبرا الرقّ مسألة تستحق الاهتمام الكبير، بل فضّلا التحليق في مسائل الفكر الإسلامي المجردة بدل النزول إلى واقع المجتمعات الإسلامية التي تعيش فضيحة العنصرية إلى اليوم، إذ يرزح تحت العبودية في أرض الإسلام حوالي 3 ملايين من البشر أغلبهم من الملوّنين.

إلى اليوم تقول!

نعم. لكن، ورغم التستر والتعتيم عليها في بلاد الإسلام وفي نصوصه من لدن المسلمين وأصدقائهم، فهي غير خافية على الناس العاديين، ناهيك عن المهتمين بالعالم العربي الإسلامي غير المداهنين، فقد سبق أن تطرّق إلى الموضوع كثير من الباحثين كجاك هيرس في "النخاسون في أرض الإسلام"، وأوليڤيه بيتري غرونويو في "المتاجرة بالعبيد" وروبيردافيس في "عبيد مسيحيون وأسياد مسلمون، الرقيق الأبيض في البحر الأبيض المتوسط 1500-1800"...

والباحثون العرب؟

في السنوات الأخيرة انبرى للموضوع باحثون من العالم الإسلامي ذاته، فبالإضافة إلى كتاب مالك شبل "الرقّ في أرض الإسلام"، كتب المغربيّ محمد الناجي عن العبيد، السلطة والدين في العالم

العربي[1]، فالعبودية حسب رأيه ليست إرثا قديماً فحسب، بل هي متغلغلة في كيان المجتمعات الإسلامية ومهيمنة على ذهنيتها.

يعني أصبحت جزءاً من الثقافة العربية؟؟

يبقى تاريخ العالم العربي، كما يقول الناجي، سجيناً للخطاب الديني وتصوراته، لذلك فلا تتمثّل السلطة خارج العلاقة بين السيد والعبد. أمّا تيديان نداي، فقد تحدّث عن الإبادة المستورة[2]. فإن كان للعبيد أحفاد اليوم في أمريكا وفي البرازيل وغيرهما، فإنهم لم يتركوا ذرية، إن كانوا سوداً أو غلماناً في بلدان الإسلام، إلاّ في حالات نادرة، يقول السنغالي، معتبرا جلب الأفارقة إلى أرض الإسلام كإبادة، لأنّ الترحيل لم ينحصر في حرمانهم من الحرية والأعمال الشاقة فحسب، وإنما كان أيضا – وعلى نطاق واسع – عملية مبرمجة يمكن أن ننظر إليها على أنّها "إطفاء إثني عن طريق الإخصاء". وربما هذا ما يفسّر قلّة السود في مجتمعات الخليج وفي مصر وغيرها، مقارنة بالأعداد الضخمة التي جاء بها المسلمون من إفريقيا.

وبماذا يطالب المثقفون العرب والمسلمون؟

دعا الأنتروبولوجي مالك شبل إلى اجتثاث ثقافة الرقّ من المجتمعات العربية والإسلامية التي ما زال فيها حيّاً يرزق في رأيه. جاء كتابه[3] صرخة مدوّية، وسط التستّر المفضوح، حول الممارسات العنصرية في البلدان الإسلامية. وقد بدا مالك في هذا النصّ على غير عادته، إذ لم يكن نصّه مجرّد بحث علميّ بارد، بل كان نصّاً لهوباً، أطلق فيه العنان لانطباعاته الغاضبة، وتأفّفه من ثقافة الرقّ في البلدان الإسلامية.

و كيف تفسر هذا الانقلاب؟

لست أدري.. ربما اكتشف صاحب إسلامات الأنوار السابقة إسلاماً آخر كان مغيّباً هو إسلام الرقّ والعبودية؟ أم أنّ عمله يدخل في مجال البحوث الاستباقية، بعدما كثر الجدل والدراسات والكتب المتناولة للموضوع في فرنسا، وظهور أصوات إفريقية زنجية تنادي بمحاسبة النخاسة الإسلامية، مثلما تحاسب أختها المسيحية؟ فهل يضطرّ الأزهر يوما للاعتذار؟ وهل يُجبَر الإصلاحويون على مراجعة أوراقهم المحسنة؟ وهل يعترف المسلمون بأنّ الأجداد قد استعبدوا الناس وقد خلقتهم أمهاتهم أحراراً؟

إن اعترض المسلمون على كتابات الغربيين في الموضوع، واعتبروها مغرضة وحاقدة على الإسلام والمسلمين، فما هي الحجج التي يرفعونها في وجه باحثين من دمهم ولحمهم؟

نعم.. كيف يكون النقد الموجَّه لباحث مسلم، كمالك شبل حاول جاهداً في كلّ ما كتب أن يتجنّب، بكلّ ما أوتي من حداثة ولغة فرنسية، المسائل التي يمكن أن تثير حفيظتهم، فلم يتعرّض قطّ لما جاء في القرآن بالنقد، بل انتقد دائماً تأويلات المسلمين؟ ربّما ذلك ما يعطي للكتب قيمة مضافة؛ فلا يستطيع

[1] Mohamed Ennaji, Le sujet et le Memlouk, esclavage et religion dans le monde arabe, éd. Mille et une nuit.
[2] Tidiane N'daye, Le génocide voilé, Gallimard.
[3] Chebel Malek, L'esclavage en terre d'islam, Fayard.

أهل "الإسلام صالح لكلّ زمان" اتّهام أصحابها بالتحامل على الإسلام والمسلمين، إذ تضعهم تلك المؤلّفات وجاً لوجه أمام واقعهم ونصوصهم الدينية.

و في هذا الكتاب؟

نزل مالك شبل، هذه المرّة، من أعالي القراءات التأويلية ليستقصي الحقيقة الميدانية. وهكذا التقى بضحايا الممارسة المشينة للرقّ في جمهورية موريتانيا الإسلامية، والمملكة المغربية الهاشمية الإسلامية، ومصر الشريعة، وفي المملكة العربية السعودية راعي الإسلام الحصريّ، ودول الخليج.. وذهب إلى القول إنّ استعباد الآخرين أصبح أمراً مهضوماً عادياً، بحيث لا يشعر مرتكبوه أنّهم جناة لأنّ ثقافة الاستعباد متغلغلة منذ قرون في مجتمعاتهم.

غريب فعلا أن يحدث هذا اليوم! واصل واصل...

ويشرح مالك: لم يذهب الغربيون إلى إفريقيا من أجل جلب خادمات لرفع مكانة العائلة اجتماعياً كما فعل المسلمون، بل من أجل جلب اليد العاملة، لذلك يعيش العبد في الشرق وسط عائلة أو مملكة، وبهذا تكون العبودية أكثر قبولاً وهضماً وبالتالي صعب طردها، فهي قائمة منذ 15 قرناً وربّما هذا هو السبب الأساسيّ الذي يعطّل عملية القضاء على الظاهرة. فلئن بدأت عملية القضاء عليها سنة 1864 مع تونس، فإنّها لم تصل إلى نهايتها النظرية سوى سنة 1981 مع موريتانيا التي أصدرت قانوناً أكثر صرامة سنة 2007 لتحرير آلاف "الموريتانيين" الواقعين حتى اليوم في هذا الفخ اللعين. وإذا أردتِ أن تتأكدي وتتوسعي فعليك زيارة موقع "منظمة نجدة العبيد".

وهل يمكن أن يتجاوز المجتمع العربي المشكلة، وتحت أي شروط؟

إنه لمن السذاجة أن نطرح القضية خارج إعادة نظر عميقة لمكان الدين في المجتمع العربي، فهل يمكن الوصول إلى شيء إيجابي دون المرور الحتمي بإحداث قطيعة أساسية مع كلّ ما يبرِّر الاستعباد، مقدَّساً كان أو عرفياً؟ أم ننتظر تحرك المنظمات الحقوقية الغربية المدافعة عن حقوق البشر، وحينها نصفها بالتآمر علينا وبالتدخل في خصوصيتنا؟

كيف تتحدث عن إعادة نظر عميقة لمكانة الدين في المجتمع العربي والقطيعة الأساسية... الخ، والفكرة الغالبة تقول إن الإسلام غير متناقض في جوهره مع ما أسميناه حداثة؟ وأنه قابل للتأقلم مع كل مسائل العصر؟

لن يتأقلم الإسلام مع الواقع الجديد أبداً، فكل المحاولات الإصلاحية التلفيقية ستذهب أدراج الرياح الواحدة تلو الأخرى. إن ادّعاء العكس هو إما عدم فهم الإسلام أو التظاهر بعدم الفهم، أو جهل تام بالحداثة. أليس جوهر الإسلام هو العمل على تكييف الواقع مع رسالته؟ فلا يمكن اليوم للإنسان أن يكون مسلماً دون أن يصطدم بالواقع. فهو لن يستحيل عليه تغيير الإسلام، كما رأينا، لهذا يحاول تغيير العالم حسب الرغبة الإسلامية، ليتماشى مع الإسلام. نشر "عبد النور بيدار" كتاباً أسماه "إسلام من

أجل عصرنا"[1]، غير أني أرى أن أفضل تصوير لبسيكولوجية الجماهير المسلمة اليوم هو: عصر من أجل إسلامنا.

وهو الشيء الذي بدأت تقوم به الجاليات المسلمة في الغرب: أسلمة الأشياء شيئاً فشيئاً: مسبح غير مختلط، رفض ممارسة الذكور مهنة طب النساء، فرض الحجاب في الإدارات، تجريم فقدان العذرية...

والحاصول؟

(وتضحكين مقلدة لهجة الجزائريين)

يقول الفيلسوف نيتشه: باسم الإنسانية بالغتْ الإيديولوجيات العلمانية في نصرنة المسيحية وبالغت في تثمين رسالتها. ويمكننا القول نفس الشيء عن الإسلام: فقد فعلت الإيديولوجيات العربية معه باسم توافق افتراضي بينه وبين الحداثة.

أريد أن أعود إلى الحياة الفعلية كما تجري على الأرض، وبأمثلة دقيقة عملية. هل يمكن أن أعيش في بلد عربي دون أن أكون مسلمة، أم هناك بالفعل تحرش ديني كما تسميه؟

في تلك البلدان أسلمي تَسلمي! سأعطيك أمثلة وأترك لك حرية الاستنتاج.

لمْ تُسلب من المسيحيين العراقيين مواطنتهم فحسب بل تم تصفية وتهجير الآلاف منهم. والذين لم يغادروا أو لم تطلهم يد الجهاد بعد يَطلب منهم رجال دينهم الاحتفال بأعيادهم في الكتمان خوفاً من إثارة مشاعر جيرانهم المسلمين. لقد تم الاعتداء على عشرات دور العبادة، وأُزهقت عشرات من أرواح الموحّدين من غير المسلمين.

في السودان ولئن تمتع أهل الجنوب نظريا بنعمة الانفلات من أحكام الشريعة المفروضة على إخوانهم في الشمال، يلاحقهم العنف الجهادي حتى الديار، لا لشيء سوى أنهم مسيحيون أو إحيائيون. وتَتهم عديد الشهادات النظام السوداني في تدبير أو مباركة كثير من الاعتداءات التي يذهب ضحيتها مواطنين سودانيين غير مُحمّديين.

وهكذا هي الأمور في بقية البلدان العربية الأخرى؟

في مصر يتعرض الأقباط لاعتداءات جسدية ومعنوية، وتتعرض معابدهم ومتاجرهم وزرعهم إلى الحرق والهدم، إلى حد أصبح بعضهم يصف الأمر على أنه "مجزرة ثقافية" فعلية. أما تقرير حقوق الإنسان 2009 الصادر بالقاهرة ذاتها فيصف في صفحته 118 الوضع: "وفي ظل تنامي معالم "الدولة الدينية"، وذلك من خلال توظيف الدين بكثافة أكبر في إدارة دولاب الدولة، صار ممكنا أن يضاف لمهمات وزارة الداخلية مطاردة الأقباط الذين يصلّون في منازلهم نظراً لعدم السماح لهم بإقامة كنائس للتعبد فيها. وتعقب المفطرين علناً في نهار شهر "رمضان"! وأن يستخدم قانون الطوارئ لتعقب ما يسمى بـ"منكري السنّة النبوية"! وملاحقة مئات من معتنقي المذهب الشيعي تحت مظلة من التحريض

[1] Bidar Abdennour, Un islam pour notre temps, Seuil ,2004.

الإعلامي ضد الشيعة. وأن ينعكس ذلك في النهاية في البرلمان، حيث يطالب نواب في الحزب الوطني الحاكم بإصدار تشريعات تجرّم "البهائية"! وتعاقب المفطرين علناً في شهر رمضان"!

"وفي هذا السياق، تتفاقم مظاهر العنف الطائفي بين المسلمين والأقباط، يكتب معدّو التقرير، ويتسع نطاقها الجغرافي، لتشمل عشر محافظات، كما تعرّض البهائيون لاعتداءات بدنية غير مسبوقة من مسلمين". ولا يتوانى التقرير في إدانة تواطؤ أجهزة البوليس المصرية ذاتها بل وقيامها بالاعتداءات (ص134)، ولا يجد كبير فرق بين الشرطة الدينية في المملكة العربية السعودية والشرطة المصرية التي تلقي القبض على المواطنين، لا لشيء سوى أنهم يتناولون طعاماً أو شراباً أو يدخنون علناً في نهار رمضان!

وكيف حال غير المسلمين في الجزائر؟

في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، الدولة المدنية رسمياً والتي يحمي دستورها حرية المعتقد ولا يجرّم قانونها الإفطار في رمضان يطارَد المفطرون كالمجرمين، ويحاكمون بتهمة "التعريض بالإسلام ومبادئه" التي تكلف المتهم من 3 إلى 5 سنوات سجناً حسب المادة 144-2-2 من قانون العقوبات! فتحْت غطاء "الدفاع عن ثوابت الأمة الدينية" تمكنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (علم إيه!) وغيرها من التجمعات المتكاثرة والجارية في ركبها – والتي تدعو وتعمل سراً وعلانية لإقامة الدولة الإسلامية – من فرض ثقافة أصولية معادية للدولة المدنية العلمانية التي تتعايش فيها كل العقائد. وهي تحقق اليوم بأموال الشعب ما عجزت عن تحقيقه جبهة الإنقاذ بقوة السلاح، إذ أقنعت السلطة بأسلمة مظاهر الحياة العامة ومطاردة مَن يُشتبه في تنّصرهم ومَن يُعتقد أنهم يمارسون التبشير المسيحي...

ألا ينص الدستور الجزائري على حرية الضمير؟

بلى.. ولكن رغم هذا فمادته الثانية المؤكِّدة على أن الإسلام دين الدولة تنسف كل شيء وتُقصي مَن لم يكن مسلماً! والأكثر من ذلك فأمام تحوّل كمشة من الجزائريين إلى المسيحية، أصدر رئيس الجمهورية الجزائرية عبد العزيز بوتفليقة ذاته مرسوماً سنة 2006، كما سبق وأن حدثتك، يجرّم فيه كل إنسان يحثّ أو يُرغم أو يَستعمل وسائل تهدف إلى تحويل المسلم إلى دين آخر غير الإسلام. ويهدد المرسوم أيّ شخص يروّج لمعتقدات غير الإسلام بعقوبة سجن تتراوح من شهرين إلى ستة أشهر نافذة. كما يلزم الأقلّيات الدينية بممارسة شعائرها في أماكن محددة ترخّص لها السلطة مسبقاً.

لنقرأ في تقرير حقوق الإنسان المذكور سابقاً: "وقد شهدت منطقة بريان بولاية "غرداية" جنوب الجزائر خلال أبريل/نيسان ومايو/أيار 2009، اشتباكات فيما بين الأقلية الأمازيغية ممن يعتنقون المذهب الإباضي مع سائر المواطنين الذين يعتنقون المذهب المالكي، وأفضت الاشتباكات إلى مصرع أربعة أشخاص وجرح عشرات آخرين، وتخريب بعض المنشآت الحكومية. وقد اندلعت هذه الاشتباكات على خلفية مطالبة مجموعة من مواطني "غرداية" رئيس الجمهورية بالاعتراف بالمذهب الإباضي". وقد أشرنا إلى تلك الحوادث سابقاً إن كنت تذكرين. ومن جهة أخرى قامت السلطات بالقبض على بعض المسلمين المفطرين في رمضان دون سند من القانون الجزائري (ص156). وهو ما يحدث في المغرب أيضاً،

إذ تصدت قوى البوليس بالقوة للاحتجاجات على قانون يعاقب المجاهرين بالإفطار في رمضان، وقد تم القبض على أربعة أشخاص ومنع آخرين من السفر في سبتمبر/أيلول 2009 كانوا قد خططوا عن طريق شبكة الفيس بوك للخروج في نزهة خلوية لإحدى الغابات كنوع من الاحتجاج على هذا القانون الجنائي المعاقِب للمفطرين المسلمين بالحبس من شهر إلى ستة أشهر (ص129).

وماذا عن تونس التي تحب؟

حتى في تونس التي كانت جنة المفطرين العرب بدأ الجو يترمضن شيئاً فشيئاً ويفقد حياديته، وأصبح يُنظر إلى الفاطر فيها بعين مشمئزة لا ترى فيه سوى المروق والكفر. فمن حالة العلنية يكاد الإفطار أن يتحول إلى سلوك شبه سري، بعدما أصبحت المقاهي والمطاعم تطلق النقاب على واجهاتها خوفاً من الإساءة إلى عموم الصائمين![1].

أمر محزن..

هل يذكر التقرير بلداناً أخرى؟

عن مملكة البحرين نقرأ عنواناً دالاً لا يستدعي تعليقاً هو: "البحرين: تمييز منهجي ضد الشيعة لتكريس حكم الأقلية السنية".

وفي الكويت هيمن الاتجاه الأصولي على وزارة التربية وبذلك أصبح من النادر أن نجد بين مدرّسي ومدرّسات الكويت المُعارين من الدول العربية مدرّسين ومدرّسات مسيحيين كما كان الحال في السابق.

ألا يوجد دولة واحدة مدنيّة في المنطقة العربية؟

البلدان التي ذكرتها هي على سبيل المثال لا الحصر، إذ أردتُ أن أعرض لكِ أمثلة كإشارة سريعة إلى الردة الحقوقية الظاهرة للعيان، وهذا لا يعني أن الدول غير المذكورة هي في وضع أحسن. و عموما لا تزال تعرض بعض المكتبات في الوطن العربي كتبا تنتقد النصارى وتصف دينهم بالمحرَّف وتدعو صراحة إلى أسلمتهم، وتطالب بفرض دراسة الإسلام على جميع الطلبة في المدارس بصرف النظر عما إذا كانوا مسلمين.

وما هي توابع ذلك على المدى البعيد؟

تشير دلائل متعددة في كثير من الدول العربية إلى تزاوج محتمل بين الدولة البوليسية والدينية. ففي شبه البرلمانات العربية قوى دينية رجعية لا تمل ولا تكلّ من المطالبة بتطبيق الشريعة كاملة، ضاربة عرض الحائط بأدنى حقوق المواطنين غير المؤمنين بالشريعة التي يعمل أصحابها على أسلمة المسيحيين. ولكن في المقابل يمنعون على المسيحيين، ليس حق الهداية إلى طريق عيسى بن مريم بل حتى إظهار إيمانهم بالتثليث، إذ لا تُقرع أجراس الكنائس خوفاً من أن تشكل استفزازاً للمسلمين في ديارهم!

[1] انظر التحقيق الرائع في موقع الأوان: "الفاطرون في رمضان هل يتقرضون؟" للكاتب حسن بن عثمان.

قال رسول الله: "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني دماءه وماله..." (صحيح البخاري 2983). هكذا يخطب الأئمة في المساجد. ولا تكاد تمر صلاة جمعة أو مناسبة دينية دون أن يَسمع مرتادو المساجد خطباً نارية مناوئة للمسيحيين واليهود وغير المؤمنين.

نعم نعم، أنا في الاستماع واصل واصل..

وهكذا يتعلم الناس معاداة العقائد الأخرى في المساجد. لو أجرينا استفتاء بين الشعب المصري أو الجزائري أو غيرهما حول سؤال واحد: هل توافق على منع بناء الكنائس في بلدك؟ فأكثر من تسعين في المائة سيوافقون على منع بناء الكنائس.

وعن الاختلافات بين الأرثوذكس والبروتستانت في الإسلام كيف تنعكس ميدانياً؟ أقول هذا للمزاح! عفواً بين السنة والشيعة؟

كثيراً ما يُتهم في دول السنة كل من تشيّع أو حاول التشيّع ويسجن بتهمة "اعتناق أفكار متطرفة مخالفة لصحيح الإسلام"، أو "ازدراء الدين الإسلامي"، وتُشهر في وجهه بطاقة الحسبة المعنوية أو القضائية. وسيعاني أهل السنّة نفس الإقصاء عندما يكونوا أقلية، كما في إيران، أو حتى أغلبية غير متنفّذة كما هو الحال في البحرين. وفي حالة التوازن الديمغرافي تشتعل الحرب المذهبية حتماً إذا لم يمر المجتمع إلى مرحلة الدولة المدنية، وهو ما بدأ يقتنع به العراقيون شيعة وسنة بعدما حرقتهم نار التدين السياسي والتمذهب.

اشرح أكثر من فضلك؟

التبجح بتسامح الإسلام شيء والواقع الذي يعيشه غير المسلمين في أرض الإسلام شيء آخر تماماً كما رأينا. إذ لا أحد يستطيع اليوم ستر الإقصاء الذي يتعرض له أتباع عيسى بن مريم في كثير من الدول التي تنتهج الطريقة المحمدية. وبذلك لم يبق للمسيحيين في الأغلب الأعم سوى خيارين لا ثالث لهما: قبول الذمة السرية صاغرين، أو الهجرة خارج الديار مضطرين. "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق مِنَ الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (سورة التوبة: 29) هكذا تقول كتب التربية الدينية!

وما تفسير ذلك؟

يمكن ربط هذه الردة الحضارية بتنازلات السلطات القائمة أمام الحركات الدينية الراديكالية، في محاولة لتحجيمها والاستئثار بقواعدها الجماهيرية طمعاً في إيقاف زحفها نحو السلطة. في ظل هذه الأنظمة الباحثة عن شرعية مفقودة والتي تواجه تحدي الأصولية الإسلامية، يزداد التوظيف الرسمي للدين ومغازلة الثقافة الدينية الأكثر تخلفاً، بل إنها أدمجت الخطاب الأصولي ضمن الخطاب الرسمي للدولة.

الدولة متواطئة أم مرغمة؟

الاثنان معاً، وذلك حسب البلدان. ولكن عموماً فالدولة بالنتيجة مسؤولة عن إطالة عمر الأحادية بتمويل وتشجيع لفكر لاهوتي إسلامي متحجر عن طريق مدارسها وإعلامها وخطب أئمتها الغلاة وكتابات مثقفيها الأصوليين، كما سبق وأن قلت لك مراراً.

وما العمل؟

أمام هذا الوضع الغريب عن العالم المعاصر لا حل لتحقيق حرية الإنسان سوى فصل الدين عن الدولة، وهو الشرط الوحيد الذي يضمن حيادها، ولتكف عن فرض الإسلام بالقوة. فلن تدخل ديار العروبة والإسلام إلى عصر الحرية والمساواة والتأقلم مع ما يجري فيه ما لم يتم فيها خصخصة المعتقد الديني وجعل كل الديانات والاعتقادات متساوية. ولا مهمة حقيقية للمثقف العربي في الوقت الراهن غير المطالبة بإلغاء مادة "دين الدولة الإسلام" من شبه دساتير البلاد العربية، لأنها بكل بساطة مادة عنصرية ومضادة لحقوق الإنسان وتمييز رسمي على أساس الدين. لا ينبغي أن يؤخذ ما يبدو طبيعياً على أنه كذلك، كما يقول بريخت.

هل تقصد العلمانية بعبارة "فصل الدين عن الدولة"؟

عموماً هو ما أقصده، ولكن ذلك غير كاف. إذ أن العلمانية هي من أكثر الموضوعات إثارة للخلط في بلدان العرب، والأكثر شطحاً وخروجاً عن مضمونها. فكثيراً ما تُفهم على أنها مناهِضة للدين الإسلامي، بل لا تفرق أغلبية الناس بينها وبين الإلحاد. لذلك سأطلب منكِ البحث عن معنى الكلمة لنحاول الاقتراب منها في جلستنا المقبلة، إن كانت لك رغبة في ذلك يا مجتهدة! ولا ينبغي أن تتيهي معجمياً. حاولي أن تطبقي مقولة أجدادك العرب "ما قلّ ودلّ".

❖❖❖

(تعودين بعد أسبوع , ولا أخفي سروري بذلك)

هل خصصت بعض وقت للعلمانية؟ ماذا وجدت يا عزيزتي؟

هناك اختلاف بين الدساتير الغربية، فمنها من لا يحدد العلاقة بين الدين والدولة كما هو الحال في أمريكا، وبعض يشير إلى الله دون تحديد دين من الأديان، وفي بعض الدول يؤكد الدستور على أن الكنيسة كذا هي الديانة الرسمية للدولة، وفي بعض الدول يؤكد الدستور على فصل الدين عن الدولة مع إعطاء صلاحيات واسعة للكنيسة... الخ. لكنني عدت أساساً إلى قانون 1905 الفرنسي الذي تمت بموجبه عملية العلمنة السياسية في فرنسا.

وماذا استنتجتِ؟

يمكن تلخيص فكرته في ثلاثة مبادئ كبرى...

المبدأ الأول: الجمهورية هي الضامنة لحرية الضمير، أي حرية ممارسة العبادة في حدود ما يضمن احترام النظام العام.

والثاني: لا تعترف الجمهورية بأديان أو عقائد يمكن أن تنتفع بتمويل عام، إذ كل العقائد متساوية في هذا الشأن.

والثالث: للأديان كامل الحرية في كل ما يتعلق بتنظيمها الداخلي وتمويلها الذاتي.

وما هي النتائج المترتبة جراء ذلك الحياد؟

اختفاء دور الدين كبعد من أبعاد الهوية الوطنية.. فالهوية الفرنسية لا يمكن أن تكون مسيحية ولا إسلامية ولا يهودية..

حرية الفرد في اختياراته الدينية والفلسفية.

فصل الانتماء العقائدي للفرد عن انتمائه المواطني (المواطنة)

تقصدين الفصل بشكل عام بين المجال الخاص والمجال العام؟

نعم.. هكذا تُقسم العلمانية المجال المجتمعي إلى دائرة خاصة يمكن أن نعبّر في داخلها عن عقائدنا بحرية، ودائرة عامة ينبغي أن تبقى في حياد صارم تجاه الدين والمعتقدات، كما في التعليم والقانون. وهو ما نلمسه على أرض الواقع، إذ منذ التحاقي بالمدرسة لا أذكر أن حاول أستاذ في يوم من الأيام أن يدعو إلى دين من الأديان في القسم.. وأنا سعيدة بذلك، فليس من مهمات المدرسة الدعوة إلى الدين.

محظوظة أنتِ! هذا ليس من حظ كل تلاميذ العالم. فأنا شخصياً تم تعليمي الصلاة وكل تعاليم الدين في المدرسة الجزائرية. ولا يزال التعليم الديني قائماً في سائر الدول العربية تحت مسمى "تربية إسلامية".

حتى بالنسبة للتلاميذ غير المسلمين!؟

مع الأسف نعم. وحتى في بلد يدّعي العلمانية كتركيا نجد كثير من أبناء العلويين مجبرين في تلقي دروساً دينية على الطريقة السنية. كما تتقلص في هذا البلد حقوق المواطنين إذا كانوا من الأرمن أو من الأشوريين الكلدانيين أو اليونان أو اليهود.

(ممتعضة) ألم تدخل العلمانية هذا العالم بعد؟

تلك هي المسألة يا عزيزتي، أو ذلك هو مربط الفرس إذا أردتِ أن أستعمل عبارة بدوية. سؤالك على براءته يلخّص أزمة العرب الراهنة من ألفها إلى يائها. هل تعلمين أن كلمة "لايسيتي" قد ترجمت بالعلمانية لأول مرة سنة 1828 من أحد مترجمي الحملة الفرنسية على مصر، وذلك في معجم فرنسي عربي، وبعد ذلك تبنى المصطلح مجمع اللغة العربية بالقاهرة. فهي قُبلت ككلمة وحُوربت وتحارَب كمضمون. بل أعيد النظر فيها حتى ككلمة؛ فقد طالب المفكر المغربي محمد عابد الجابري بحذفها من القاموس العربي تماماً، مدعياً أنها لا تعبّر عن شيء بالنسبة للمسلمين، لأن ليس هناك ما يُفصَل في العالم العربي الإسلامي. وصدقيني تلك ليست نكتة!

لا يهمني تاريخ دخول الكلمة المعجمي ولا خروجها، كما يقول المفكر الذي تذكر، بل دخولها السياسي إلى البلدان العربية.

لم يَعرف العالم العربي العلمانية في ظروف عادية، بل كان لقاؤه بها عبر الاستعمار الأوروبي. إذ بدأت الدول العربية تتخلى شيئاً فشيئاً عن بعض أساليب السلطة الدينية المشينة كالعبودية وفرض الجزية على غير المسلمين، وقطع يد السارق، وجلد الزاني، ورجم الزانيات... في محاولة لتفادي استفزاز الآخر.

ألم تقل لي أن السعودية لم تعرف الاستعمار قط، فهل يعني ذلك أنها لم تلتق بعد بالعلمانية؟ (

ملاحظتكِ رائعة.. ربما عدم معرفة السعودية للاستعمار الأوروبي بشكل مباشر هو الذي جعل العقوبات البدنية تستمر فيها إلى اليوم. فكأن أنوار الحداثة لم تصل إلى المملكة. وهذا لا يعني أنني أثمّن الاستعمار، فالمستعمر الفرنسي ذاته هو الذي كان يحارب العلمنة في جزائر ما قبل الاستقلال، فهو الذي فرض قانوناً خاصاً بالجزائريين يعتمد على الشريعة الإسلامية، بينما كان المعمّرون ينعمون بقانون وضعي حديث.

أمر خبيث حقاً.. ويريد بعضهم اليوم سنّ قوانين تمجّد هذا الاستعمار العنصري! وبالنسبة للعالم العربي ككل، كيف حال العلمانية فيه؟

أولاً أريد أن أضيف على ما تفضلت به أنه من الخطأ حصر العلمانية في مجموعة من الإجراءات القانونية والتنظيمية، ونسيان أنها حصيلة تحولات جذرية في الفكر والمنهج. إنها تجاوز حاسم للمنظومة الفلسفية للدين عموماً، بل هي قطيعة منهجية مع الفكر اللاهوتي: التاريخ بدل الماوراء، العقل محلّ النص، الخ.

وثانياً ينبغي أن تعرفي أن الفروق الملاحَظة بين مختلف الدول العربية في موضوع العلمانية لا تسمح لنا بالحديث عن "عالم عربي" بل عن "مجتمعات عربية"، إذ يختلف تاريخ هذه المجتمعات مع الحداثة اختلافاً كبيراً، فلا مجال للمقارنة بين تونس والسعودية على سبيل المثال. لا يمكن أن أتخيل أن تمر أفكار الداعية يوسف القرضاوي كبديهيات في بلاد بورقيبة حينما يتحدث في كتابه "الحلال والحرام في الإسلام" عن كيف ولماذا يحق للزوج المسلم أن يضرب زوجته؟ "باليد"، "بدون سوط"، "الامتناع عن ضرب الوجه"... لا هذا ولا ذاك، تردّ معظم التونسيات ومعظم التونسيين وكل العقلانيين العرب.

لم تتمكن "الدولة العربية" الحديثة من الانفصال عن الدين بشكل جدي، رغم محاولات كثيرة من هنا وهناك حاولت الانتقال بالدولة إلى الشكل المدني الحديث. فلا يزال الإسلام هو دين الدولة كما سبق وتحدثنا، ولا يزال التشريع يُستمد بشكل أساسي من الشريعة الإسلامية، أو على الأقل لا ينبغي ألا يتناقض مع روحها. فالدولة العربية اليوم لا هي بالدولة المدنية ولا هي بالدولة الدينية، تقترب من الأولى في نقاط معينة ومن الثانية في نقاط أخرى.

المنزلة بين المنزلتين إذن؟

بالضبط. أعرف أنكِ مغرمة بهذه العبارة!

بغض النظر عن توجهاتها، تجد الأنظمة العربية نفسها في ورطة لا تُحسد عليها، فهي لا تستطيع تطبيق الشريعة بحذافيرها ولا تستطيع التخلي عنها نهائياً. فلا دين متحرر من الدولة ولا دولة متحررة من الدين.

ولماذا لا تستطيع الخروج من هذا المأزق الغريب؟

لأنها لا تريد أن تُغضب الإسلاميين في الداخل ولا المطالبين بالإصلاح في الخارج، وخاصة بعد أحداث 11 سبتمبر/أيلول المشؤومة. أما فيما يخص رواد العلمانية في البلدان العربية فهم كثيرون، رغم

تعرض الفكر العلماني فيها إلى مجزرة: علي عبد الرازق، شبلي الشميل، لويس عوض، طه حسين، نقولا حداد، قاسم أمين، يعقوب صروف، إسماعيل مظهر، رفاعة الطهطاوي، جورجي زيدان، ميخائيل نعيمة، سلامة موسى، فرح أنطون صاحب المناظرة الشهيرة مع محمد عبده، والذي نحت مصطلحاً رائعاً لقول الفصل بين الدين والدولة لم يُكتب له البقاء هو "الحيادة"، ووصولاً إلى فرج فودة، شهيد الدولة المدنية الذي قتله الأصوليون في مصر في نهاية الثمانينيات، وفؤاد زكريا والعفيف الأخضر وجورج طرابيشي، وكثير من الشجعان الآخرين والذين لا يمكن ذكرهم جميعاً، إذ أن المطالبين بالعلمانية كثيرون اليوم. وهم لا يهدفون إلى تقويض الدين أو نشر الإلحاد كما يُتهمون، بل يعملون على الفصل بين المواطن والمؤمن وما يترتب عن ذلك من أمور ذكرنا بعضها وسنذكر، لا محالة، بعضها الآخر في أحاديثنا اللاحقة.

يبدو بينهم عدد من الأسماء من غير المسلمين، هل من بين دعاة العلمانية مسيحيون عرب أيضاً؟

نعم هناك كثر من المسيحيين العلمانيين. بل اتخذ مناوئو العلمانية من هذا الأمر مأخذاً على الدعوة العلمانية العربية، حيث ادعوا أن جميع العلمانيين العرب مسيحيين. لكن هذا الأمر غير صحيح...

أبداً لم يكونوا كلهم نصارى بل كان منهم مسلمين مشهورين من أمثال علي عبد الرازق الذي كان أزهرياً، وطه حسين، والكواكبي الذي كان يقول بأن الاستبداد السياسي ناتج عن الاستبداد الديني، وقاسم أمين نصير المرأة، وأحمد لطفي السيد، وغيرهم كثير مشرقاً ومغرباً. وحتى وإن كانوا كلهم من النصارى فهذا لا ينقص بأي حال من الأحوال من قيمة العلمانية ولا من ضرورتها. وعلى كل حال يبدو واضحاً أن ربط العلمانية بالنصارى هو من اختلاق الإسلاميين بهدف نزع كل مصداقية عن العلمانية في الوطن العربي.

ترد فشل العلمانية في "المجتمعات العربية" إذن إلى صعود الإسلام السياسي أو الأصولية كما يحلو لكَ أن تقول؟

بنسبة كبيرة نعم، فـ"ظهور حركة الإخوان المسلمين" في مصر (سنة 1928)، وانتشارها في كل ربوع الوطن العربي كان له أثراً بالغاً، ليس في فشل المشروع العلماني فحسب بل في فشل مشروع التحديث برمته في البلدان العربية.

كيف؟

تحت غطاء النهوض الحضاري الإسلامي أو العودة إلى الأصول، أعادت الجماعة إحياء ثقافة دينية معادية للتقدم السياسي والحقوقي والمساواتي، ووجدت في التراث الإسلامي ما يعزّز اتجاهاتها المتخلفة.

ألا يمكن إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله ونستريح؟

أولاً لا يجب أخذ هذه الحكاية (إنجيل متى، الفصل 22، الآيات 15-21) على أنها وصف لما حصل في التاريخ، كما يريد بعضهم تضليلنا. بل هي مجرد مقولة فتّش عنها المتدينون في تراثهم لتبرير هزيمة المسيحية أمام الحداثة. ولكن بغض النظر عن هذا الأمر فليس من السهل يا عزيزتي فصل

الدين عن الدولة في العالم العربي، فلم يوجد فصل واضح بين الروحي والزمني طيلة التاريخ الإسلامي.

و هل هي خصوصية عربية ؟ ألم تكن الكنسية مشاركة في السلطة؟

وهو نفس ما أردت قوله في تعليقي على مقولة "ما لله لله وما لقيصر لقيصر". ولكن لا أخفي اعترافي، فأنتِ اليوم في "فورمة" جيدة! نعم بالإمكان أن يتم يفصل الدين عن الدولة حتى في المجتمعات الإسلامية، وقد حدث ذلك في تركيا على يد كمال أتاتورك. ولكن أعتقد أن الأمر ليس بالسهولة التي تتصورين ويتصور الكثير من الأوروبيين.

وأين تكمن الصعوبة؟

قرأت في المدة الأخيرة كتاباً عن العلمانية[1] يقول في محصلته عن الإصلاح الديني ما يلي: الإصلاح الديني لا يعني الانخراط في نمط من العقلانية مآله تجفيف المنابع الروحية، ولا الانغماس في فردانية مطلقة تعزل الفرد عن محيطه الاجتماعي، بل يقتضي التوصل إلى صيغ من التوافق بين العقلانية والروحانية، بين استقلال الفرد في الكيفية التي يعيش بها تدينه والحفاظ على مقومات التضامن والتماسك الاجتماعي، وبين الاعتراف بحقوق المجال الخاص والشخصي واحترام المجال العام حيث يصعب أن يتخلى الإسلام عن دوره في توجيه الأخلاق الاجتماعية. لكن هذه التوافقات والتوازنات المأمولة تتطلب في المقابل إبعاد الدين عن كل استخدام سياسي مباشر، سواء أصدر عن الحكام أو المعارضات.

أتفق تماماً معه. ألا تشاطرني الرأي؟

لا يصعب على الإسلام التخلي عن دوره في توجيه الأخلاق فحسب، كما يقول المفكر الهرماسي، بل يعز على المسلمين أن يبتعد الإسلام عن السياسة كذلك.

تريد أن تقول مع الإسلاميين إن "الإسلام دين ودولة"؟

لماذا تحشرينني معهم يا عزيزتي، ما ذنبي إذا كانت الشريعة الإسلامية التقليدية متناقضة تماماً مع العلمانية والحداثة وحقوق الإنسان وكل ما هو معاصر، شأنها ككل العقائد الدينية الأخرى ما قبل حداثية؟

ألم يتم إصلاح المسيحية جذرياً؟

لم تصلح المسيحية نفسها هكذا لوجه الرب، كما أشرت مراراً، بل هُزمت فاضطرت أن تغيّر جلدها كي لا تندثر نهائياً.

لماذا لا يتم ذلك مع الإسلام؟ ألا يدعو كثيرون للمواءمة بين الإسلام والحداثة، بل يرون عدم تناقضهما كي لا أقول تكاملهما؟

من يقول بذلك إما أنه دجال أو أنه لا يعرف لا الحداثة ولا الإسلام. فالتوازن مستحيل بين الشريعة والعصر، حيث لا يمكن أن تتم المواءمة بين الإسلام والحداثة ما لم يتم إنجاز إصلاح ديني

[1] عبد اللطيف الهرماسي، ظاهرة التكفير في المجتمع العربي، مركز الجزيرة للأبحاث والدار العربية للعلوم ناشرون 2010.

شامل، تتغير على إثره نظرة المسلمين كلياً لشريعتهم، ودون أن يتجاوزا بشكل حاسم مقولة أنها "صالحة لكل زمان ولكل مكان".

ألا يكون ذلك ممكنا؟

بصراحة لا أظن أن المسلمين مستعدين للتضحية بتراثهم اللاعقلاني، بل العكس هو الصحيح. يزداد التمسك بالعتيق يوماً بعد يوم لأسباب كثيرة جداً يطول شرحها، منها ما هو متعلق بالدين الإسلامي ذاته ومنها ما هو راجع لأوضاعهم السياسية والاقتصادية والنفسية التي يتخبطون فيها اليوم.

هل يمكن أن تذكر بعض الأمثلة؟

كانت الجماعة الإسلامية منذ البدء كنيسة ودولة في الوقت نفسه، يصعب فك تشابكهما. هل تعلمين أن الإسلام كوّن دولة وما زالت وحدة الدين والسلطة محفورة في وعي ولاوعي وذاكرة المسلمين، وما زالت الكتب والأفلام والمدرسة تمجد تلك التجربة التاريخية وتطالب بإحيائها، بل تقدسها وتقديس رجالاتها. ليس هناك سلطتان واحدة روحية وأخرى زمنية، بل هما شيء واحد. هناك قانون واحد فقط هو الشريعة (وما يتفرع عنها) التي يقبلها المسلمون لأنها ذات مصدر إلهي، وتقوم بتنظيم كل شؤون الحياة. لحد الآن يرفض أغلب المسلمين أن يكون الإيمان فردياً وحميمياً؛ وذلك هو الشرط الأساس من أجل دنيوة (مِنْ الدنيا) المجتمع العربي.

لا أمل إذن.. ألا نشتمّ من كلامك رائحة ما يشبه "نهاية التاريخ"؟

أبداً.. لا أحد يستطيع إيقاف التاريخ ولا تسريعه، ولكن ما هو أصعب تجاوزاً بالنسبة للإسلام هو ذلك المزج والدمج والتشابك بين الدين والدنيا، إلى درجة تخضع فيها سلوكات الناس اليومية لأحكام معيّنة هي جزء من الدين ذاته: فالفقه سياسة والسياسة فقه. هناك يا عزيزتي حقائق مزعجة يجب أن نشير إليها، فبعض الإيديولوجيات تصبح ديانات فقط، وبعض الديانات فقط إيديولوجيات.

وما هي المعوقات الأخرى التي تقف حجر عثرة أمام العلمانية في المجتمعات العربية؟

فشل العلمانية جزء من فشل مشروع التحديث بشكل عام، حتى لا أقول أن مشروع التنوير قد وصل اليوم مع تنامي القوى الدينية المتشددة إلى درجة "انسداد" قصوى.

أنت شديد التشاؤم! ألم تعش أوروبا نفس الوضع؟

هذا صحيح ولكن لم يتم ذلك إلا بعد أن فكك الفلاسفة العقيدة المسيحية وأعادوها إلى تاريخيتها بقراءة نقدية لتعاليمها، وبذلك حرروا الناس ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر من هيمنتها على تفكيرهم. ورسّخوا في أذهانهم أن على الدين أن يكتفي في الدولة الديمقراطية بإشباع حاجات الأفراد المؤمنين الروحية فقط. كان القوم قبل ذلك يعتقدون أن الكتاب المقدس هو الحامل للتاريخ، والآن عرفوا أن التاريخ هو الذي يحمل هذا الكتاب. وسيأتي يوم يعي فيه المسلمون بدورهم أن الإسلام هو جزء من الحياة وليس الحياة هي التي تعتبر جزء من الإسلام.

ألا يفعل المفكرون العرب اليوم نفس الشيء؟ ألا يتحدثون عن الإصلاح الديني؟

نعم يتحدثون ويكتبون كثيرا ولكن ما المقصود بالإصلاح الديني الذي يتحدثون عنه؟ هل يهدف إلى فتح الطريق أمام المجتمعات العربية لدخول الحداثة الشاملة، وبالتالي تحقيق التقدم، أم يقصد بالإصلاح الديني مجرد محاولة توفيق مصطنع بين الدين الإسلامي والعقلنة والعلمنة والدمقرطة؟ هل المقصود نقلة نوعية جريئة قادرة على تجاوز ما يعتبره عامة المسلمين مقدساً؟ أم هو محاولة تحيين لأفكار دينية باتت متناقضة شكلاً ومضموناً مع أطروحات العصر الأساسية، كالمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، وحرية الاعتقاد، الخ؟ هل المسلمون مستعدون لتعطيل كل الأحكام القرآنية المتعارضة مع مبادئ فلسفة حقوق الإنسان؟ هل يعني الإصلاح الديني إحداث قطيعة مع التصور الديني وتطبيقاته على الأرض، أم هو تكرار لما قام به مفكرو النهضة ابتداء من القرن التاسع عشر؟

حسب ما فهمت لم يفعل المفكرون ذلك.. ففيمَ فكروا إذن؟

ببساطة أعادوا إنتاج الإيديولوجية الدينية وأبّدوا حضور النص الديني بدل إحداث القطيعة معه وبدل فتح آفاق أخرى تمكّن وتحضّر الناس لتقبل فكر الحداثة والتخلص من ذهنية الفتوى والتوجه نحو الاهتمام بإيجاد حلول عقلانية للمسائل التي يطرحها عليهم واقعهم. ربما تلخص لنا كلمة طه حسين في الشيخ محمد عبده المسألة برمتها: "إنني أرى فيه مجدِّداً عظيم الأهمية، لكنه حمّل نصوص الإسلام أكثر مما تحمل لكي يجعلها تتفق والعلم الحديث"[1].

وهل يتكرر الآن نفس السيناريو؟ وما هي الأطروحة الغالبة في الوقت الراهن؟

أصعب الأمور اليوم هو إعادة النظر في الخطابات التمجيدية والشعبوية حول الدين الإسلامي، كتلك القائلة بالصلوحية الأبدية للنص الديني الإسلامي، والتي لا تملّ من التأكيد على عدم تعارضه مع الحداثة. هذه الشعارات المرفوعة منذ قرنين، منذ ذلك الزمن الذي التقى فيه العالم الإسلامي بواقعه المتخلف ساعة اصطدامه بالآخر الاستعماري المتفوق.

وكيف كان وقع الصدمة؟

أدرك المسلم على أثرها مرارة أنه لم يعد مبدعاً بل رادُّ فعل فقط. وعيه أو بالأحرى وقوفه المفاجئ على تأخره المريع جعله معلقاً بين ماضيه الغالب وحاضره المغلوب. تلك الحالة التي شخصها العقل العربي الحديث في عبارة "صدمة الحداثة". تلك الإشكالية التي صاغها شكيب أرسلان في نهاية ثلاثينيات القرن المنصرم في عنوان كتابه: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

سؤال مهم، كثير ما طرحته على نفسي ولم أجد له جواباً شافياً؟ هل لك من إجابة تريحني بها؟ وما العمل أمام هذه الحقيقة المرة؟

أنا أطرح سؤالاً آخر، أراه الأهمّ ولو أنه مغيّب دوماً.

ألا وهو؟

لماذا يستمرون في التأخر؟ وهل الإسلام مسؤول عن انحطاطهم في الوقت الحاضر أم لا؟

وفي رأيك كيف يجيب المسلمون؟

---

[1] سوزان طه حسين، **معك**، دار المعارف، الطبعة الثانية، ص 44.

"أبداً"، يجيبون شبه مجمعين. منذ دعاة الإصلاح في منتصف القرن التاسع عشر إلى ما سميّ اليوم بـ"مفكري الإسلام الجدد"[1] لم يُبدِع العرب نموذجهم الحضاري المعادل للغرب، بل حاولوا اختلاق توافق بين ما جاء به القرآن والسنّة ومكتسبات الحداثة الأوروبية. في كتابه عن الإسلام وتصادم الحضارات والذي يتساءل فيه عن أي مشروع يبحث المسلمون وأية حداثة يبتغون؟[2]، يبدو طارق رمضان نجم الأصولية الصاعد متيقناً من أن المسلمين يحظون بكل الوسائل الكفيلة برفع التحديات والعيش في المجتمع المعاصر دون أدنى خيانة لهويتهم. فهم يستطيعون التفكير في العصر انطلاقاً من تراثهم، واقتراح نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي خاص بهم يكون منسجماً مع الأخلاق والغايات الدينية والروحية الإسلامية. فهل من السهولة تحقيق ذلك العيش السعيد؟

طارق رمضان، هل هو ذاك الذي صرّح يوماً على القناة الفرنسية الثانية في نقاش مع نيكولا ساركوزي وزير الداخلية آنذاك أنه يدعو إلى التعليق المؤقت لعقوبة الرجم؟

نعم هو بالذات والصفات، كما يقول أهلنا في الجزائر. ولكن ليس هو الأول، ولا يمكن أن يكون الأخير مِن أولائك الذين حاولوا الجمع بين الهوية الإسلامية والعالم المعاصر. فالمسألة غدت من التقاليد الفكرية كيلا أقول المشروع الثقافي الوحيد الذي اعتبره العرب والمتأسلمون منهم على وجه الخصوص أنجع الوسائل لاستدراك بعض المسافة التي تفصلهم عن الغرب المتمدن، بل أصبح هذا النهج التلفيقي استحواذياً للّحاق بركب الحضارة، كما تقول العبارة المسوّسة. كدت أقول أن هذا التوافق المزعوم بين الإسلام والتقدم هو اليوم رياضة وطنية، أو على الأقل هو أحب أنواع الرياضة إلى قلب الأنتليجنسيا العربية-الإسلامية.

لم يكتف بعضهم بحلم التلفيق، بل راح يقلب المعادلة رأسا على عقب، إذ انتقل القوم من وهم تحديث الإسلام إلى وهم أسلمة الحداثة[3].

هذا أمر طريف حقاً! ولكن لا تقل لي أنه لم يحدث أن فكّر أحد قط عكس هذا الاتجاه التوفيقي؟

على رغم من وجود محاولات محتشمة حاولت إحداث بعض طلاق بين ذاك الزواج المفروض بين الإسلام والعصر، مثل محاولة علي عبد الرازق الذي أخرسه الأزهر سنة 1925 رغم أنه لم يدعُ سوى إلى انتهاج علمانية ابتدائية، وكذلك محاولة السوداني محمود محمد طه، المقتول إعداما والذي نادى بكل جرأة وضمير مهني عال بنسخ القسم التشريعي من القرآن، ذلك القسم المتجاوَز تاريخياً، حسبه وليس كما يدّعي معاصرنا الفرنسي يوسف أوصديق في كتابه "لَمْ نقرأ القرآن بعد"، الذي ذكرناه آنفاً، حيث يقول لنا أن المشكلة فينا وليس في ديننا. هل تعلمين أن العقلاني "سلامة موسى" قد تنبأ بالكارثة التي يحياها العرب اليوم. سأقرأ لك ما كتب سنة 1935 في كتابه "ما هي النهضة؟": "إن

[1] Rachid benzine, Les nouveaux penseurs de l'islam, éd. Albin Michel,2004,Paris.
[2] Tarik R. , Islam, le face à face des civilisations. Quel projet pour quelle modernité ? éd. Tawhid, 2005.
[3] Abdesalam Yassine, Islamiser la modernité, éd. El Ofok, 1998.

أسوأ ما أخشاه أن ننتصر على المستعمرين ونطردهم، وأن ننتصر على المستغلين ونخضعهم، ثم نعجز عن أن نهزم القرون الوسطى في حياتنا ونعود إلى دعوة: عودوا إلى القدماء...".

وهو ما نعيشه اليوم بالكمال والتمام يا صديقتي! انتقلنا من مرحلة الاستعمار الاستيطاني إلى مرحلة استعمار الأرواح الظلامي.

محمود محمد طه نُفّذ في حقه حكم الإعدام لأنه فكّر! هل التفكير جريمة؟

بإنشائه لجمعية "الإخوان الجمهوريين" حاول محمود محمد طه الرد على أم الأصولية الإسلامية "الإخوان المسلمين". هؤلاء الذين رفعوا شعار "الإسلام دستورنا" في العشرينات من القرن المنصرم، ذلك الشعار الذي ما زال حيا في قلوب المسلمين حتى في الغرب، "القرآن دستورنا، فهو الذي ينظم حياتنا"، يقول رئيس اتحاد الجمعيات الإسلامية في فرنسا سنة 2003[1].

لقد تم تناسي وإبعاد كل المحاولات التحديثية الجادة على قلّتها وعدم جذريتها، واحتُفظ بوهم "الأصالة والمعاصرة". فجل مفكري هذه الموضة يرفضون وحتى اليوم الاعتراف بأدنى تعارض بين الإسلام والحداثة، ويعملون جاهدين وعائدين إلى الماضي يستلّون منه نتفة من هنا وأخرى من هناك لإقناعنا بسرابهم.

إذا كان الأمر على هذا الضلال، فلماذا يَلقى خطاب المواءمة هذا استحساناً من طرف أغلب المسلمين؟

لأسباب متعددة يتهافت الجمهور المسلم وحتى الغربي على هؤلاء المفكرين الإصلاحويين، مع يقينه التام على أنهم لا يقترحون سوى تسوية ما مع المستحيل، ولا يقدمون سوى نظرة متماسكة لما هو مفكك وصائر إلى الزوال.

ما هي الزلة الكبرى التي يقع فيها مَن تسميهم إصلاحويين؟

يصادر الإصلاحويون دائماً وأبداً على المطلوب، فيطرحون سؤالاً واحداً: كيف نوفق بين الإسلام والحداثة؟

وما هي الأسئلة التي تريد أن يطرحوا؟

كان أحرى بهم أن يسألوا أولاً: هل يتوافق الإسلام مع العالم المعاصر أو الحداثة؟ لندقق السؤال أكثر: هل يتكيف الدوغم الإسلامي مع متطلبات العصر الحديث؟ هل تجد مسائل مثل حرية العقيدة والتفكير، استقلالية الفرد، حرية التصرف بالنفس، حرية امتلاك الجسد، المساواة بين الجنسين وغير ذلك من المسائل المتعلقة بحقوق الإنسان حلولاً لها في إطار الدين الإسلامي دون أن يكون هناك أدنى تصادم بين تلك الحلول المفترضة لا مع القرآن ولا مع السنة ولا مع بسيكولوجية الجماهير المؤسلمة؟ هل الإسلام معاد أم لا لهذه الحقوق الأساسية للإنسان؟ هل تأخُّر بلدان الإسلام بنيوي أم عارض؟ هل يمكن سلوك طريق آخر نحو التقدم غير طريق الحداثة الأوروبية؟ هل تقف التقاليد الإسلامية حجر عثرة أمام تقدم البلدان التي يسيطر فيها الإسلام؟

---

[1] Le Parisien du12/02/2003

على أهميتها وضرورة طرحها، تلك إشكاليات تتطلب وقتاً طويلاً لمناقشتها، وأنتَ تعلم أن لا وقتي يسمح بذلك ولا وقتكَ، فنحن لا نكاد نعثر على بعض لحظات نخصصها لمشروعنا الكلامي!

مشروع كلامي! تلك عبارة جيدة! إذن كيلا يبقى حوارنا سابحاً في بحر القيل والقال والشرح وشرح الشرح والكلام الفضفاض، لنترك الخطابات حول النصوص ونقترب أكثر من النصوص ذاتها لمعرفة ما إذا كانت قادرة على إضاءة بعض المسائل الهامة الخلافية المطروحة اليوم في دنيا المسلمين، وكيف تُفهم تلك النصوص مِن معظم مسلمي اليوم، وما هي انعكاسات ذلك الفهم على واقعهم؟

وأين الروحانيات من كل هذا؟

يبدو الإسلام كإيديولوجية جماهيرية أكثر مما هو روحانية فردية، وبما أن الحداثة السياسية هي عقد بين الفرد والدولة وليس بين الدولة ومجموعات، فهذا يطرح مشكلاً عويصاً لأن مجموعات الإسلام تعتبر دينها سياسة وأخلاقاً وقانوناً وهوية، وهو ما يلخصه شعار اللاهوتيين في دالاته الثلاث الشهيرة: دين، دنيا، دولة. وهذا يعني أنهم يطالبون الدين بما لا يستطيع توفيره أو تقديمه!

تفادياً للسقوط في مستنقع العموميات، أليس من الأحسن اختيار مسائل محددة؟

حسناً وماذا تقترحين؟

أتمنى أن نناقش بعد عودتي من لندن مكانة المرأة ووضعها في الإسلام والبلدان الإسلامية.

آه رحلتك اللغوية! أتمنى لك إقامة سعيدة في بلاد شكسبير.

ثانكيو ڤـيري ماتش ميستر (وتضحكين كعادتكِ).

❖❖❖

لقد اشتقت إلى دردشتنا يا آنسة لم نتحدث في الموضوع منذ شهر تقريباً. هل أنستك لندن مشروعنا الكلامي كما تقولين؟

لا أبداً. وجودي في لندن ورؤيتي لنساء محجبات منقبات كان يذكّرني كل يوم بحديثنا الأخير حول المرأة المسلمة، أو بالأحرى المرأة والإسلام. فأنا في شوق لمعرفة المزيد.. فكيف ينظر الأخ المسلم لأخته المسلمة؟

قبل هذا أتمنى أن أعرف انطباعاتكِ حول المسلمين في لندن؟

أول ما شد انتباهي، وربما يكون مجرد انطباع، هو أن المسلمين لا يختلطون مع الإنجليز البيض. هناك ما يشبه خط فاصل غير مرئي يفصل بين الإثنيات، وهو شيء لا أشعر به إطلاقاً هنا في فرنسا.

ربما لأنكِ لا تعيشين في منطقة مأهولة بأغلبية من المهاجرين!

ربما.. ولكن لا تنسى الاختلاف الهام الموجود بين فرنسا وبريطانيا فيما يخص النظرة إلى الوافدين الأجانب؟

أنا كلي آذان صاغية.. تفضلي.. نوّريني يا عالمة الاجتماع المبكرة..

آه.. قلْ لمن يدّعي في العلم فلسفة!

نعم.. لم تغب عني أشياء فحسب بل أغلب الأشياء يا عزيزتي.. فالجاهل ليس مَن لا يعلم، وإنما من لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم.. تفضلي زيديني علماً يا أستاذتي!

انتُهجت في فرنسا سياسة اندماجية للمهاجرين كي لا نقول إدماجية، بينما تنتهج بريطانيا سياسة إثنية مجتمعانية بمعنى الانعزال الثقافي، وهو ما يعرف بالطريقة الانغلوسكسونية، أي التعدد الثقافي في البلد الواحد. وهو ما يبدو تشجيعا للغيتوهات إذا نظرنا إلى ذلك من هنا في فرنسا.

ولذلك فلا يُزعج الحجاب والنقاب مثلاً في بريطانيا لأن البريطانيين لا يهمهم الاختلاط بالوافدين، في حين يحدث العكس في فرنسا لأن الفرنسيين يرغبون في ذلك، بل يعتبرون الهوية الفرنسية مزيجاً من كل الثقافات الوافدة. والآن بدأ يعود مَن انتهجوا الأسلوب الأنغلوسكسوني إلى فلسفة الاندماج، لأن النموذج الأنغلوسكسوني أثبت فشله الذريع في إدماج المهاجرين المسلمين، بل أصبح مشتلة لتفريخ الأصوليين في أوروبا.. وقد بات مثار إعادة نظر حتى لدى الهولنديين الذين كانوا من أنصاره المغالين.

هل أصبح التعدد الثقافي خطراً يهدد المجتمعات الأوروبية؟

التعدد ليس خطراً في حدّ ذاته، لكن من الضروريّ توفّر تنازل متبادل أدنى من أجل ضمان عيش سلميّ في مجتمع متعدّد الإثنيات.

تريد أن تقول ألا يوجد تنازل متبادل بين الوافدين والسكان الأصليين؟

من يتجوّل في منطقة مولينباك في بروكسل، أو "المغرب الصغير" كما تسمّيه "هند فريحي"، من أصل مغربيّ، في كتابها "نزهة داخل غواصة في المغرب الصغير"، ومَن يعرف مدينة مرسيليا وحيّ بارباس بباريس لا يمكنه أن يؤمن بسهولة بتسوية محتملة ما.

حسناً لنعد الآن إذا سمحتَ إلى سؤالي حول مكانة المرأة في الإسلام؟

ذكريني بسؤالك؟

كيف ينظر المسلم إلى المسلمة؟

اختصاراً ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما، يقول أغلب المسلمين المتدينين وغير المتدينين، وهو حديث صحيح.

كيف؟

لأن الشيطان يغري الرجل والمرأة إن اجتمعا في خلوة، ولذلك يجب فصلهما.

وفرض الحجاب على المرأة!

الحجاب ليس قضية لباس اختياري فحسب بل هو لباس/صندوق مفروض على النساء لتجنب فخاخ إبليس اللعين. في سوريا، نتمتع بصور مكبَّرة رائعة لنساء محجبات معلقة في لوائح دعائية تقول: "أناقة المرأة المحجبة"، "أناقتك في حجابك"، "الحجاب يحافظ على جمالك سيدتي". في مصر المحروسة قلَب القوم الدنيا ولم يقعدوها ذات عام، إخوانجيون ومجتمع ديني وسائقو سيارات أجرة ووو، هبوا كرجل واحد ضد وزير الثقافة فاروق حسني وطالبوا كلهم برأسه.

وماذا فعل؟ هل أجرم الرجل أو ارتكب كبيرة من الكبائر؟

لقد صرّح المسكين ببراءة، ولم يكن يدري أنه يفجر جدلاً كبيراً بين مثقفي مصر وأخواتها المتأسلمات، حين قال: "ارتداء المرأة المصرية للحجاب عودة إلى الوراء"، "نحن عاصرنا أمهاتنا وتربّينا

وتعلمنا على أيديهن عندما كن يذهبن إلى الجامعات والعمل دون حجاب، فلماذا نعود الآن إلى الوراء؟"، "النساء بشعرهن الجميل كالورود لا يجب تغطيتها وحجبها عن الناس"، "العالم كله يتقدم وسنغافورة عمرها 100 سنة تتقدم، ونحن ما زلنا في مكاننا. رغم أننا نملك حضارة 5 آلاف سنة، نذهب لنستمع إلى فتاوى شيخ بثلاثة مليم"[1].

كلام معقول..

لماذا لا تثور ثائرة القوم أمام التحرش الذي تعانيه النساء في شوارع مصر إذ أن هذه الظاهرة ليست جديدة حسب المركز المصري لحقوق المرأة، وإنما هي موجودة منذ عدة سنوات. ويبدو أنها اختفت خلال شهر رمضان 2008، وعادت في أيام العيد بقوة، وكان المركز قد أجرى استطلاعاً بين مئات النساء المصريات والأجنبيات المقيمات في مصر، حيث أفادت 84.5 % منهن أنهن تعرضن للتحرش الجنسي، وقالت معظمهن أنهن يتعرضن للتحرش بشكل يومي، بينما اعترف 62 % من الرجال الذين استهدفهم الاستطلاع أنهم مارسوا التحرش الجنسي. ونظرا لاستفحال هذه التظاهرة أَطلق المركز حملة عام 2005 تحت شعار "لنجعل الشارع آمنا للجميع"، ويبدو أن الحملة لم تحقق نتائجها المرجوة[2].

هل هناك فعلاً مساواة قانونية حقيقية بين الرجل والمرأة في الإسلام؟

مَن يقول بالمساواة يصطدم رأساً بمبدأ القوامة الإسلامي المؤكَّد في الآية القائلة: "الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً". أما الحديث النبوي فيقول: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها". أما الآية 223 من سورة البقرة فيقول الله فيها: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم".

وفي الحديث رقم 4921 يقول الرسول: "النساء أقلية في الجنة". وفي الـ 4923: "لم أترك بعدي مأساة للرجال مثل النساء". وربما يؤسس الجزائريون تصوراتهم للأنوثة على هذا التراث الديني فينعتون المرأة بأنها بقرة إبليس، بل يذهب بعضهم إلى حد قول أكرمك الله قبل أن يتلفظ بكلمة "امرأة"، كما يفعل كلما ذَكر حماراً أو كلباً أو خنزيراً. وفي بلدك الجزائر وفي منطقة القبائل أتعرفين كيف يسمي الأمازيغ المرأة؟

أعرف أن كلمة الأمازيغ تعني الرجال الأحرار فكيف يسمون المرأة إذن؟

تاطموثت. وهي الكلمة العربية المحرّفة "الطمث"!

تريد أن تقول أنهم يسمونها نجاسة؟!

نعم شيء من هذا القبيل مع الأسف..

أمر غريب.. محزن!

---

[1] المصري اليوم 2006/11/16.

[2] إذاعة هولندا

وهل تعلمين يا جزائرية الأصل أن أغلب الجزائريين لا يتلفظون بأسماء زوجاتهم أصلاً، يقولون "هي" أو "هذيك". وهكذا يجردونها من كيانها ليقتلوها معنوياً كيلا يعترفون بها كذات مستقلة عن الولي، ولي أمرها.

وهل تجد أسباباً أخرى غير دينية لتلك النظرة المشينة؟

ربما يعود سبب تشنج علاقة العرب مع المرأة إلى ذاك القمع السياسي المزمن المسلّط عليهم.. ربما يجدون في إساءة معاملة المرأة مجالاً ينفسون من خلاله عما يعانون من هتك لكرامتهم من قِبل ذكور الحُكم وحتى من قِبل نسائه.

الدين والدنيا معاً.. تسلطا على المرأة تاطموثت كما يقول الرجال الأحرار!

لقد ظهر الإسلام في ثقافة بطريكية تنظر إلى المرأة على أنها مخلوق أدنى. فإلى اليوم ما زالت تدعى "وليّة" عندما تكون وحدها في المغرب والجزائر، ويقصد بذلك الكائن المسكين القابل للعطب الذي لا وليّ ولا نصير يحمي عرضه. وإذا كان للمسلم الحق في الاقتران بغير المسلمة فلا يحق للمسلمة الاقتران بغير المسلم...

في سنة 1990 اختلقت منظمة المؤتمر الإسلامي في القاهرة إعلاناً لحقوق الإنسان في الإسلام، انطلاقاً من الشريعة، وبداهة تجاهل محرروه المساواة بين الرجل والمرأة وكانوا منسجمين مع أنفسهم إذ أن الشريعة كتلة روحية-قانونية-اجتماعية، تتعارض فلسفتها جذرياً مع حقوق الإنسان في تعريفها المعاصر. أما في مؤتمر بكين الذي نظمته الأمم المتحدة سنة 1995 لمناقشة وضع النساء في العالم طالبت الدول الإسلامية بحذف كلمة "مساواة" من الوثيقة النهائية واستبدالها بكلمة "إنصاف"، باعتبار أن الإسلام ينصف المرأة ولا يساويها بأخيها الرجل.

كدت أقول لكَ أنني أتفهم تشاؤمك!

لكن إن كان هذا مفهوماً ومنتظَراً من منتدبين يمثلون دولاً إسلامية تطبق الشريعة جهاراً نهاراً وأخرى تطبقها في شبه سرية، فمِن المحزن أن نجد مناضلات من أجل المساواة والحقوق المدنية يعتقدن وأحياناً بلا تكتيك بإمكانية الشريعة في المساهمة الإيجابية في خدمة قضية النساء. تقول الكاتبة السوسيولوجية "ليلى بابس" بالحرف الواحد: "لا يوجد في الإسلام ما يبيح للرجل ضرب المرأة". وهو أمر انتبهت إليه حتى تلك القاضية الألمانية التي ذكرنا سابقاً حينما أجازت لزوج مغربي ضرب زوجته الألمانية معتمدة على الآية التي ذكرناها سابقا. أما رئيسة ومؤسسة جمعية "لا مومسات ولا خاضعات"، والوزيرة الفرنسية اليوم "فضيلة عمارة"، فتقول واثقة: "أنا المؤمنة أعتبر أن الفلسفة التي تنبثق من القرآن ثورية ومحرِّرة للمرأة".

وأنتَ غير متفق معها طبعاً..

يمكن لمن لا تعاني ما تعانيه النساء كل يوم جراء ما يُفهم من هذه الفلسفة أن تقول ما تشاء. ما عانته المرجومة صورية من ويلات ووحشية في إيران، وسلطانة وبناتها في السعودية، وزانا التي ولدت في بريطانيا والتي بيعت هي وأختها في اليمن، والفلسطينية التي أُحرقت حية، وغيرهن مِن المعذَّبات الصامتات على طول البلدان العربية والإسلامية وحتى في الغرب نفسه. هل قرأتْ الوزيرة المنتدَبة

قصة جرجرة الفتاة القبائلية في باريس، وكيف انتقم أهلها من حريتها؟ ومأساة ليلى التي زُوّجت رغم أنفها، وكتاب "الخطيبة المستوردة" الذي ترصد فيه الألمانية من أصل تركي "نكلا كيلاك" حياة الأتراك في ألمانيا من الداخل، والتي تحكي فيه عما تفعله تلك الفلسفة التحررية في الشابات الألمانيات المنحدرات من أصول إسلامية تركية.

إذن لا حل في إطار إسلامي؟

حتى وإن سلّمنا مع بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن تحسّنٍ ما لوضعية النساء مع ظهور الإسلام، لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن ما كان في القرن السابع تقدماً رائداً هو اليوم بمقياس العصر متقادِم، بل ممات وإشكالي حتى بالنسبة للمجتمعات الإسلامية ذاتها. فتحْت الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والمنظمات الحقوقية الدولية تحاول معظم الدول المسماة إسلامية تجنّب واستبعاد أوامر الشريعة المتقادمة كتعدد الزوجات أو التطليق... مستعملة الحيل الفقهية المتكاثرة. صحيح أنه في الجزائر أو تونس أو المغرب أو سوريا لا تُقطع يد السارق ولا يد السارقة ولا يُجلد الناس لأنهم مارسوا الزنى مثلما يحدث في السعودية، لكنها استبدلت بعقوبات مهينة وقاسية كالسجن أو الغرامة المالية. ولكن إن اعتمدت هذه الدول، صائبة، قانوناً مدنياً وضعياً، فإنها مع الأسف أبقت الشريعة الإسلامية أساس قانون الأحوال الشخصية أو ما يسمى قانون الأسرة أحياناً.

والمدونة في المغرب ألم تكن تقدماً؟

في إرشاداته حول قانون الأسرة المغربي، أو ما سمي بالمدونة كما تقولين، يضع الملك محمد السادس الخطوط التي لا ينبغي تجاوزها. لقد شدد على "قيم الإسلام المتسامح الذي يشرّف الإنسان ويدعو إلى العدالة والمساواة والمعاشرة الطيبة". وركز على انتهاج "الاجتهاد، ذلك الجهد القضائي الذي يجعل الإسلام يتكيف مع كل عصر وكل مكان".

هذا جيد أم أنتَ تستعد لإضافة "لكن" (مبتسمة)..

أحسنتِ.. ولكنه يضيف بكل حزم: "لا يمكن لي بصفتي أميراً للمؤمنين أن أحلل ما حرّم الله تعالى ولا تحريم ما حلل"[1]. وفي نفس المعنى يذهب الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، في رسالة وجهها للنساء الجزائريات بمناسبة عيدهن يوم 8 مارس/آذار 2008، ليؤكد قائلاً: "طالبتن بتعديل قانون الأسرة فنلتن ما طلبتن. ولكنني لا أستطيع فعل أكثر من ذلك، لا يمكنني أن أتّبع منهج البعض لأغضب الله وأعصي رغبته. لا يمكنني أن أساوم مع الآيات القرآنية. في ما يخص الحديث، يمكن أن نجد تأويلات متعددة، أما مع الآيات القرآنية فلا"[2].

وما هي الخطوط الممنوع تجاوزها؟

يحق للرجل تزويج نفسه مثلاً، بينما تحتاج المرأة إلى موافقة وليّ أمرها حسب قانون الأحوال الشخصية السوري. أما فيما يتعلق بالطلاق فإن السوري له الحق أن يطلق زوجته، بينما يصعب على

[1] خطاب محمد السادس يوم 2003/10/10، مترجَم عن النسخة الفرنسية.

[2] ترجمة من النسخة الفرنسية.

السورية أن تفعل ذلك؛ وهناك مسائل تمييزية أخرى كتعدد الزوجات. وفي قانون العقوبات نجد تمييزاً واضحاً بينهما، حيث تُعاقب المرأة الزانية بالحبس من ثلاثة أشهر إلى سنتين، سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة، أما شريكها الزاني فيُعاقب بالعقوبة نفسها إذا كان متزوجاً أما إذا كان غير متزوج فعقوبته الحبس من شهر إلى سنة. كما أن جرائم الشرف، حسب موقع "نساء سورية"، ما زالت تُرتكب في البلد حيث تُقتل حوالي 200 إلى 300 امرأة سنوياً وما زالت المادة 548 سارية المفعول رغم حملات الجمعيات النسوية المطالِبة بإسقاطها. أتريدين أضحوكة فقهية مصرية؟

ذاك ما أحبذ دائماً!

في سنة 2005 عارض مفتي جمهورية مصر العربية، الشيخ علي جمعة، ترشّح الروائية وعالمة النفس نوال السعداوي لانتخابات رئاسة الجمهورية. فلماذا عارض ترشح امرأة في رحلتها العلمية والأدبية أكثر من أربعين كتابا مترجمة إلى ثلاثين لغة في اعتقادكِ؟

لا أعرف..

أعرف أنكِ لا يمكن أن تعرفي، فلا يمكن أن يخطر على بالكِ منطقه أبداً!

لا يمكن للمرأة في عرفه أن تتولى منصب رئيس الجمهورية بسبب عادتها الشهرية.

سخافة.. يا ليتني ما سمعت هذا الهراء!

وهل تعرفين أنه ينبغي احترام النظافة بعد ممارسة الحب، فالحب الجنسي مثل وظائف الجسد الطبيعية الأخرى. ولكن سأكون متفائلاً هذه المرة: ستندثر مثل هذه الكائنات الآتية من أغوار الماضي بأبله الفتاوى وأسخف الأفكار، ولن يستطع المرضى بالتراث وكُتبه الصفراء أن يؤبِّدوا ثقافة الحريم في وجدان المجتمع العربي الجمعي.

وهل سمعت أيضا بتلك القبيلة من نابلس التي أرادت التبرع بابنتها كهدية لذاك النعلاوي العراقي، ضارب الرئيس بوش بحذائه؟

وهل تعرفين أنه لقضاء دَيْن يزوج بعض الآباء من السعودية بناتهم وهن صغيرات ما زلن في طور الرضاعة لكائنات بلغت من العمر أرذله! ويتخاصم الذكور هناك إلى اليوم في مسألة جواز قيادة المرأة للسيارة بينما تقود نساء مصائر أمم كاملة في أنحاء أخرى من العالم. وها هم بعض أشباه الرجال في بلدان عربية كثيرة يخوضون التحدي بتطليق زوجاتهن ويراهنون بهن.

وهل تعلمين أنه في إيحاء جنسوي ساقط، مَنع بعض كهنة العراق الجدد بيع الخيار للنساء!

شر البلية ما يضحك..

اسمعي ما يقول الباحث الفلسطينيّ "محمد الزين" المُتخصص في علوم القُرآن: "إنّ بَول الأطفال الرُضّع نجِس، ولكنّ بول الرضيعة أنجسُ من بول الرضيع". وذهب الباحث في برنامج "لعلّكم تتفكّرون" الذي تذيعه قناة الأقصى التابعة لحركة حماس في غزّة إلى أنّ بول الرضيعة نجاستُه لا تُزال إلا مع الغسل، فيما بول الصبيّ نجاسة مخفّفة يكفي معها الرشّ والنضح.

هذا باحث.. تقول!

هكذا يُقدِّم مَن اعتبر أنّ هذا الموضوع يُعتبر بمثابة حكمة علمية بقوله: "ولإثبات هذه الحكمة العلمية قام بعض العلماء في جامعة عراقية بعمل تجربة مُميَّزة تحت إشراف أحد أساتذة الهيئة العالمية للإعجاز، وقد خرجت التجربة بحقيقة علمية وهي إثبات أنّ هناك نوعاً من البكتريا، يُطلق عليها "البكتريا العَصَوية" موجودة في بول الرضيع الذكر والأُنثى، ولكن الغريب في الأمر – على حدّ قوله – أنّ البكتريا في بول الرضيع الذكر كانت أقلّ بكثير من البكتريا الموجودة في بول الرضيعة".

علمٌ عظيم فعلاً..

لم تَسْلم المرأة حتى من علماء الدين المحسوبين على الإصلاحيين، فها هو من يعتبره البعض من رموز السلفية المجددة في المغرب، الشيخ المغراوي، يفتي بصحة تزويج البنت وهي في سن التاسعة، موضحاً أن هذا الأمر المستقبح مِن طرف العلمانيين ووسائل الإعلام واردٌ في حديث نبوي في أهم مصادر الإسلام وأصحها، وهو صحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم. وكان مَن يرأس "جمعية الدعوة إلى القرآن والسنة بمراكش" قد أكد في فتوى سابقة أنه "متى كان في المرأة إمكانية لتحمل الرجل فتزوَّج على أي سن كانت، باستثناء السنوات الصغيرة جدا...".

اسمحي لي عزيزتي بنقل ما أضافه فقيه الغريزة من سفاهة: "لكن قد تظهر المرأة في سن العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة ويكون لها جسم وعقل وبنية ومؤهلات تمكّنها من الزواج، فهذا أمر شهدناه وعرفناه وسمعنا به وحدّثنا به أن بنات التسعة لهن من القدرة على النكاح ما للكبيرات من بنات العشرينيات فما فوق، فهذا لا إشكال فيه".

إذا بقينا لهم من التابعين، قد يبحر بنا أئمة البيدوفيليا، (اشتهاء القُصر) وفقهاء البلوغ العقائدي في بحور ظلام لن نخرج منها إلى أبد الآبدين..

معكَ ألف حق..

غير بعيد عن المغرب الأقصى، رفض رئيس جمعية العلماء المسلمين (أي علم!) والوزير الأسبق للشؤون الدينية في الجزائر الجمهورية دعوة منظمة حقوقية تشديد العقوبة على مَن يرفع يده على المرأة، معتمداً كالمغراوي، أخيه في العروبة واللاهوت، على النصوص الدينية، مؤكداً أن الحقوقيين ليسوا أرحم بالمرأة من خالقها الذي ذكر كلمة الضرب في القرآن في معرض تأديب المرأة الناشز. ولم يكتف "عبد الرحمان شيبان" بذلك فحسب، بل ادّعى أن دراسات نفسية كثيرة أكدت أن المرأة تتلذذ بضرب زوجها لها!

لئن كان ضرب حواء أمراً حلالاً من الناحية الشرعية، إذ يمكن تأديبها بضرب غير مبرّح وبدون ضرر، فإنه لا يجوز من الناحية السياسية، يقول الشيخ، وذاك ليس رحمة بها، بل لأن ذلك، سيشوّه الإسلام وسيلصق به تهم العنف والعدوانية! كأن شيخ السادو مازو يقول لِمن نصّبوا أنفسهم أولياء أمر النساء: "مَتّعهن ضرباً بعيداً عن أعين الكفار".

على المرأة المسلمة أن تحمد الغرب فلولاه لسحقها هذا الفقه الرث.

نعم أنا فعلاً سعيدة بوجودي هنا في الغرب.. وأشعر بذلك أكثر مما كنت قبل أن نبدأ حديثنا المطول.. كيلا أقول الرسمي. (وتبتسمين)

لكن حتى من يعشن بعيداً عن أرض الشريعة يلاحقهن الفقه المعادي للأنوثة ويحاول تكفينهن في حجاب أو جلباب أو غيرهما من أكياس التنميط والاستنساخ. ونرى اليوم في عواصم أوروبا بعضهن تسدلن الظلام على الضياء ويغيب الصبح منها تحت ليل، على حد قول أبي نواس.

عليكِ بتدبر الأمثال المتداولة في الوطن العربي لتدركين وتتعرفين على نظرة المجتمع للمرأة.

هل في جعبتكَ البعض منها؟

اسمحي لي عزيزتي إنني أخجل وأنحني أمامك، فاعذريني على ذكر هذه الأمثال السخيفة..

المرا مثل السجادة كل فترة بدا نفض،

المرا لو طلعت عالمريخ آخرتا عالطبيخ،

البنت إذا ما سلمت من العار بتجيب العكروت لباب الدار،

صوت حية ولا صوت بنيّة،

أمّن للحية ولا تأمّن للمرا،

المرا بنص عقل،

همّ البنات للممات،

حطّوا المرا وإبليس بكيس طلع إبليس عم يستغيث،

مرا ابن مرا يلي بيعطي سرّو لمرا،

النساء ثم النساء والنصارى واليهود،

إذا حلف فيك راجل بات راقد وإذا حلفت فيك امرأة بات قاعد.

سفاهة ونذالة فعلاً!

كيف يمكن ألا يستغرب إنسان آت من ثقافة أخرى عندما يعرف أن في بداية القرن الحادي والعشرين ما تزال المرأة تحتاج سائقاً للخروج بها إلى العمل، أو لاصطحابها وطفلها المريض إلى المستشفى في بعض بلداننا؟ بل وكيف لا يموت ضحكاً عندما يعرف أيضاً أنها ما تزال تحتاج إلى "محرم" للسفر بها إلى مؤتمر علمي تُمثل فيه بلدها، أو لإلقاء بحث في علم من العلوم المعقدة؟

عجيب!

ما يثير التعجب والغضب وحتى اليأس أحياناً هو رؤية المرأة العربية تئن تحت قوانين قاسية تمييزية، يلعب بمصيرها فقهاء، وتقرر حياتها محاكم شرعية شبع الدهر منها أكلاً وشرباً، ويتاجر بتحررها وانعتاقها من الفقه الرث أشباه سياسيين فضّلوا الفوز بمقاعد برلمانية ومحلية وما يجنوه منها من امتيازات مادية زائلة وزائفة عن إنصاف النساء ورفض الظلم عنهن. فإلى متى يمارَس التمييز والقمع ضد حواء العربية تحت يافطة الخصوصية والهوية الثقافية الصنمية. تلك الإيديولوجية السائدة اليوم التي لا تؤدي سوى إلى النكوص إلى الماضي لشرعنة هيمنة الذكورة استناداً على نصوص مقدسة وكتب تاريخية تراثية غالباً ما تكون مولداً للعنف ضد المرأة التي ينظر إلى جسدها على أنه مسكن للشياطين.

يكفيني لقد أتخمتني بما لا أحب. هل يمكن أن ننتقل إلى موضوع آخر؟ هلا حدثتني عن مسألة الردة وحرية الضمير في الإسلام؟ وهل صحيح أن الغرب معاد للثقافة الإسلامية كما نسمع ونقرأ هنا وهناك؟

كيف ندّعي أن الغرب يدسّ لنا الدسائس وينشر الأكاذيب عن ديننا وتقاليدنا ويعتقد أن ثقافتنا غير متسامحة؟ هل فعل المسلمون شيئا لتبيان العكس سلوكاً أو تفكيراً؟ في عمومها، لا تبتعد الشريعة عن الحرية فحسب بل تتناقض معها تماماً. لا يستطيع مسلم أن يترك دين الإسلام بسلام، فإن فعل فهو مرتد، عقوبته القتل. وهذا وحده كاف للقول إن الشرع لا يتناسب مع الحداثة، فهو يناقضها شكلاً ومضموناً. ألا تُعتبر حرية الاعتقاد هنا جريمة يعاقب عليها بالقتل؟

ما يثير التساؤل هو عدم وجود عقوبة أخرى للذي خرج عن الإسلام سوى القتل. فلا زال الحكم بإعدام المرتد ساري المفعول في إيران والسعودية وأفغانستان حميد كرازاي وغيرها من البلدان الإسلامية. لئن سقطت عقوبة قتل المرتد من القوانين المكتوبة في البلدان الإسلامية الأخرى، يبقى المرتد فيها محكوم عليه بالقتل رمزياً. كما وُلدنا مسلمين يُفرض علينا أن نموت كذلك. فويل للذي اشتم من كلامه أو من سلوكه رائحة الخروج عن دين الله.

وهل هذا من الدين؟

جاء في الحديث النبوي أن من يغير دينه فاقتلوه. ما هو المقصود إذن من منطوق الآية القرآنية (257، 11) "لا إكراه في الدين"؟ هل هو الدليل القاطع على التسامح والتعايش الديني؟ إن كان ذلك كذلك، فهل كانت بلدان الإسلام مثالاً للتسامح والإخاء الروحاني؟ يوضح لنا "طارق أوبرو"، رئيس جمعية أئمة فرنسا السابق وإمام مسجد بوردو، ما ينبغي فهمه من الآية السابقة الذكر والتي تُردَّد كثيراً وتُعتبر حجة دامغة لتأكيد حرية الاعتقاد في الإسلام: "لا يَفرض الإسلام الإيمان، بل يبقى الإنسان حراً في أن يؤمن أو لا يؤمن. ولكن إذا آمن واعتنق العقيدة الإسلامية وقبِل بالرسالة والواجبات الدينية فهناك حتماً تبعات لذلك. أن تترك دينك فهذا محرّم في القرآن". وهذا هو التعريف الدقيق لمذهب بريجنيڤ القائل: لا يمكن لأي بلد شيوعي مغادرة المدار السوڤياتي. يشبه المرتدون في الدولة الإسلامية ما كان يعرف بالمنشقين في البلدان الشيوعية. أما المجدّدون فهم إلى التحريفيين أقرب. السؤال الذي ينبغي أن يُطرح اليوم هو: لماذا لم تتجرأ أية سلطة دينية كانت أو مدنية على إلغاء عقوبة الردة وإعلان نهاية فكرة الردة رسمياً؟

الردة!

تحمل كلمة "الردة" معنى اتهامياً تجريمياً، فلو كان تطور المجتمع العربي متماشياً مع مبادئ القرن الحادي والعشرين لانقرضت من القاموس من تلقاء نفسها. إذ كيف يمكن اعتبار من يغيّر رأيه مجرماً؟ هل مِن المعقول أن نجبر مَن وُلد في عائلة مسلمة أن يكون مسلماً رغم أنفه؟ ألا يحق له تجاوز الدين الذي ولد فيه؟ هل نرث رؤيتنا للكون والحياة مثلما نرث نعجة أو بئراً؟ كيف يمكن أن نَتهم شخصاً بالردة وندق عنقه بمجرد أننا نفترض أنه كان مسلماً؟ لماذا يكلف ما لا طاقة له به؟ هل نكث عهداً؟ أليس من حقه أن يدافع عن نفسه قائلا: من قال لكم إنني كنت في يوم من الأيام مسلماً بإرادتي

واختياري؟ ولكن حتى وإن كان مسلماً ورعاً، ألا يحق للإنسان أن يعيد النظر في إسلامه جملة وتفصيلاً؟ بماذا يضر غيره إن فعل؟ هل يفكر المسلمون في مصلحة الفرد أكثر من تفكيره هو في مصلحته؟ هل يحبذون أن تكون الجنة مكتظة يوم القيامة؟ هل يريدون غلق باب جهنم؟

تبدو طريفاً رغم جدية الموضوع. اسمح لي فأنا لا يمكن أن امتنع عن الضحك! ولكن يبدو أن هناك كثير من الأوروبيين يتحولون إلى الإسلام، أليس كذلك؟

اعتاد عرّابو الأصولية أن ينشروا الأخبار السارة التي تحكي عن دخول الكفار إلى دين الله أفواجاً أفواجاً، ثم يستخدمونها في تعبئة الجمهور المبهور بإسلام الأوروبي والأمريكي وإن كان من ثُفّه العباد.

تقصد أنهم يستعملون ذلك كدعاية للأصولية؟

نعم.. أذكر قدوم المغني "كات ستيڤن" إلى الجزائر العاصمة، وكيف أصبح اسمه "يوسف إسلام" واعتزاله الغناء مؤقتاً، وكيف استغلت "ردّته" في أسلمة الكثير من الشباب وتجنيدهم في صفوف الجبهة الإسلامية للإنقاذ أولاً، ثم في الحركة الإسلامية المسلحة. ألم تنشر "جريدة المنقذ" لسان حال جبهة الإنقاذ ذاتها إشاعة دخول النجم "مايكل جاكسون" في دين الله على صفحتها الأولى وبالخط العريض؟

ويحدث أن يتحول بعض المسلمين إلى المسيحية أيضاً، فماذا يقولون في الأمر المعكوس؟

حينما يعتنق بعض المسيحيين الإسلام فقد هداهم الله، لكن عندما يحدث العكس ويدخل بعض المسلمين دين المسيح فقد ضلوا ضلالاً مبيناً. هذا هو التجسيد الصارخ لعبارة الكيل بمكيالين. يبتهج المسلمون كلما أسلم أحدهم فيكبّرون ويهللون لانتصار كلمة الله، لكن يعتبرون كل مَن تركَ دين محمد مجرماً مرتداً يجوز سفك دمه. يحتفلون بدخول الآلاف في دينهم، كما يزعمون، لكن يعز عليهم خروج واحد من ملّتهم والتحاقه بملة عيسى. يرفعون من شأن الداخلين ويمرغون في الوحل شرف الخارجين.

ولكن كل هذا الضغط لا يثني الكثير من المسلمين عن الخروج من الدين الحنيف سراً وعلانية. يَترك الإسلام في فرنسا ما يقارب 200 مؤمناً ومؤمنة كل عام ليعتنقوا المسيحية في العلن. في بلاد علمانية كفرنسا، لا يَفهم كل من يريد المغادرة صمت رجال الدين بخصوص مبدأ حرية الاعتقاد وتماديهم في الحديث عن أمر بات متناقضاً مع أبسط مبادئ حقوق الإنسان، يسمونه "ردة". أين حرية العقيدة وتسامح الإسلام فيما يخص الزواج المختلط الذي يجد فيه الطرف المسيحي أو اليهودي أو"البِدون" نفسه مضطراً إلى اعتناق الإسلام؟ عايشت في إحدى قرى اللورين الفرنسية قصة ذلك الشاب الفرنسي الذي أحبّ فتاة فرنسية من أصل تركي، فلم يشترط أهلها عليه اعتناق دينهم فحسب بل الختان وهو في سن الرابعة والعشرين، وقد بات مختوناً من أجل المحبوب.

يعبّر مَثل جزائري دارج عن مثل هذا الوضع جيداً: "دِيكُكم فوق سطحنا نعم أما ديكنا فوق سطحكم فلا".

هل تعرفين أيضاً بأن النجم العالمي المصري "عمر الشريف" قد اضطر لدخول الإسلام ليتزوج من المسلمة الحسناء "فاتن حمامة"؟ ولم يفكر في العودة إلى مسيحيته واستعادة اسمه ميشال بعد

طلاقهما! فلو عاد عُد من المرتدين! وهل تعرفين أيضاً أن بعض الهندوس يتحولون في الهند إلى الإسلام ليستفيدوا من تعدد الزوجات فقط!

أُحب سماع مثل هذه القصص الطريفة فهي أحسن توصيفاً للواقع. ولكن بغض النظر عن المناضلين الإسلاميين, كيف تنظر السلطات الدينية الرسمية لمسألة الردة في البلدان العربية؟

يرحب الأزهر وكل المساجد الإسلامية بالراغبين في دخول الإسلام، وتعمل كثير من الجمعيات المموَّلة من دول إسلامية في ما يسمى مجال "الدعوة" في العالم كله، وتُنفَق أموال طائلة في أسلمة المسيحيين وغيرهم، ولكن يُمنع منعاً باتاً الدعوة لغير الإسلام في بلاد المسلمين. في وقت تتعالى فيه الأصوات متبجحة بتسامح الإسلام والمسلمين ومستهجنة لا تسامح الغرب والكفار والدانماركيين أجمعين. يُتهم المرء بالتنصير في الجزائر مثلاً إن ضُبط وفي حوزته نسخة مما يسمى كتاباً مقدساً. كلمة التنصير ذاتها تحمل معنى تحقيرياً، توحي بأن الفرد في وضع المفعول به. فكأن الإنسان غير قادر على اختيار معتقده بنفسه. والغريب في الأمر أن من يُسلم فقد فكر وأعمل عقله وأعانه الله رب العالمين فهو من الفائزين، أما في حالة انتقاله إلى الإيمان المسيحي فقد غرر به وتم تنصيره من قبل المبشرين وأضله الشيطان وجعله من الخاسرين.

من خلال قراءتي لبعض الروايات والسير الذاتية, وانطلاقاً من أحاديثي معكَ، بدا لي أن الجماعة هي الأساس في البلدان العربية.. أليس كذلك؟

دون أدنى شك. ويمكن أن تلاحظي ذلك بكل بساطة حتى في لغة الناس اليومية، فكثيراً ما يستطرد الفرد قائلا: أعوذ بالله من قول "أنا" كلما نطق بهذه الكلمة. وهذا يدل من جملة ما يدل على أن "الأنا" أو الفرد، إن أردتِ، لم يتحول بعد إلى قيمة حرة في ذاته، بل ما زال تحت رحمة الجماعة. كدت أن أقول لكِ أن الأنا غائبة في المجتمعات العربية. وهذا من العوامل الأساسية التي تعيق تطور هذه المجتمعات، إذ لا انفراج اجتماعي أو حقوقي أو اقتصادي.. خارج تحرر الأفراد وحضور الأنا الفاعل.

التحرر من ماذا؟

مِن الأغلال التي كبّلته بها الأنظمة والإيديولوجيات ورجال الدين والتقاليد والعادات والقائمة طويلة..

هل لعب الدين الإسلامي دوراً أساسياً في طمس مفهوم الشخص؟

ربما من خلال المكانة التي يحتلها الفرد والقيمة التي تعطى له يتضح الخط الفاصل بين الإسلام والحداثة. فهذه الأخيرة تمجّد الفرد وحريته الشخصية.. فالحداثة إذن مقارَبة جديدة للإنسانية في قلبها الفرد والحرية والاستقلالية.

والإسلام؟

الشريعة هي الفكرة الرئيسية في الدين الإسلامي، إذ يحتوي القرآن من الآيات المتعلقة بالحياة الاجتماعية مئة مرة أكثر من تلك المتعلقة بموضوع الورع. وهذا ما يضع خطاً فاصلاً بين المسلمين والحداثة، يكاد أن يكون مثل خط ماجينو. لا شيء جديد يأتي اليوم من الإسلام، كل شيء يأتي من

خارج دياره ومنظومته الفكرية. وهو الأمر الذي يوهن إرادة أغلبية المسلمين ويجعلهم في موقف هش، يشعرون فيه أنهم ضحايا، معتدى عليهم، مهانين...

و"الحاصول" كما يقول الجزائريون؟

ليس التناقض بين الإسلام والحداثة حادثاً عابراً، وإنما هو نتيجة حتمية يعود إلى منطقهما الداخلي الهيكلي. ففي حين أن الديمقراطية تهدف إلى تنظيم الاختلاف وتسييره بشكل سلمي فإن الإسلام يهدف إلى إلغاء هذا الاختلاف والتميّز تماماً. وهو ما يفعله أصحاب الدعوة والهداية... الخ. وتِبعاً لذلك يترتب فرق أساسي بين الشريعة والقانون: الشريعة تأمر وتنهي ولكن القانون ينهي ولا يأمر.

وما دام الحال على هذا الوضع لن يجد لا الفرد المسلم ولا دولته الطريق المؤدي إلى الحضور الفاعل في العالم، وهو الشعور المطمئن الوحيد. عندما لا نملك حداثتنا العقلانية فنحن حتماً مساقون إلى الانقياد لفلكلورنا الغيبي اللاعقلاني. أتعرفين لماذا؟ لأننا ننسى جيداً، وحينما نتذكر نتذكر برداءة. وبذلك نحن اليوم مثل ذلك الحوت الأحمر الذي يتعذر عليه الخروج من القمقم كما تقول عبارة "ميشال فوكو". هناك حداثة مترددة وعلمانية مترددة أكثر فأكثر...

ولِمَ ترد ذلك بكلمة واحدة؟

ليس بكلمة واحدة وإنما بثلاثة كلمات أجنبية وواحدة عربية (ونضحك معا): لأن الأفكلارونغ كما يقول الألمان، أو الإنلايمنت كما يقول الإنغلوسكسونيون، أو ليلومبيير كما يقول الفرنسيون، أو التنوير كما يقول العلمانيون العرب، لم يترسخ في أوروبا في القرن الثامن عشر إلا بتضاد جذري مع الكنيسة.

وهو الشيء الذي لا يحدث اليوم بالنسبة للإسلام؟

نعم أرى أنه ليس هناك تشابك جدي مع الإيديولوجية الإسلامية.

هل يمكن أن تقدم مثالاً؟

ما أسميهم الإصلاحويين مثلاً يتغاضون عن البنية المغلقة للنص القرآني، ويتعاملون مع الجانب التشريعي الواضح في النص المؤسَّس كأنه مشروع مفتوح يقبل التحيين والترهين وحتى التجديد. بمعنى لا أحد يجهر بضرورة تجاوز ما جاء به الدين الإسلامي، وإنما يطالب بإعادة التأويل فقط.

هل لك أن تذكر حالة ملموسة؟

نقرأ في سورة المائدة الآية 38 أن "السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم". وكذلك في سورة النمل الآية 2: "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين". فما العمل هنا؟ هل نؤول ونُحيّن أم نقول بأن هذا الأمر قد تجاوزه الزمن وهو متناقض جذرياً مع حقوق الإنسان المعاصرة وينبغي عدم الأخذ به؟ فكيف يمكن إدخال الحداثة إلى منظومة تعتبر نفسها فوق المكان والزمان، صالحة لكل زمان ومكان؟ فهل هي قابلة للإصلاح؟

ولكن ألا يصدم ذلك الناس ويمس عقائدهم؟

نعم هذا وارد، بل حاصل. وهو ما تحاشاه أغلب المثقفين العقلانيين العرب. ولكن ما هو البديل؟ هل نضحّي بالمستقبل من أجل ترضية ديماغوجية للجماهير؟ ولكي أكون أكثر صراحة: لماذا ننتظر أن يذهب الناس إلى المستقبل عندما يجدون كل شيء في الماضي؟

والإعلام العربي ألا يطرح مثل هذه القضايا؟ أليس الإعلام هو المسؤول عن تنوير الناس؟

لكن هل هناك إعلام عربي حقاً؟

والجواب؟

في نظري لا وجود لإعلام عربي، كما لا توجد سينما عربية، وهلم جرّا... وكما أن وجود أفلام عربية لا يعني وجود سينما عربية، فوجود وسائل إعلام عربية، كالمحطات الفضائية والجرائد ورجال ونساء مهنة من صحفيين وصحفيات، لا يعني وجود إعلام عربي ذو هوية واضحة.

عجباً.. وهذه الصحف والمجلات المكدسة التي لا تمل من مطالعتها، بل والتي تساهم فيها كتابة، وهذه الفضائيات التي تملأ السماء! وتنفي وجود إعلامي عربي! هل يمكن أن تشرح لي أكثر وجهة نظرك؟

لا يختلف الإعلام من بلد عربي إلى آخر فحسب، بل من وسيلة إعلامية إلى أخرى في القطر الواحد. من يقرأ جريدة "الخبر" الجزائرية المستقلة مثلاً وصحيفة أخرى حكومية تصدر في نفس البلد، يلاحظ فرقاً شاسعاً في أسلوب ومضمون المادة الإعلامية المقدمة. ولو شاهد التلفزيون مثلاً وقرأ في نفس الوقت جريدة "الوطن" الصادرة في الجزائر بالفرنسية سيخيّل إليه أنهما لا يتحدثان عن بلد واحد. ونفس الوضع نلاحظه في المغرب أيضاً.

أما على المستوى العربي فيظن القارئ أو المشاهد أنه انتقل إلى كوكب آخر إن تصفّح جرائد أو شاهد فضائيات، إذ أن اللغة الإعلامية والاهتمامات والإمكانيات تختلف من بلد إلى آخر اختلافا جوهريا.

يعيش الإعلام في الدول العربية أزمة متعلقة بهيكل تلك الدول ذاتها، ولا يمكن أن يكون سوى في ذاك الوضع المرتبك. إعلام العرب مسّه التحديث كغيره من الميادين الأخرى. فهو يمتلك أحدث التقنيات، وتشرف عليه أقلام ذات تكوين نظري عال، تمتاز بتقنية عالية في التعامل مع الخبر من الناحية العلمية، ولكن لا تستطيع الذهاب إلى حدودها المعرفية القصوى في الممارسة.

هل لانتفاء الحرية الفردية والسياسية؟

أحسنت... فلئن تمتع الشكل بالمواصفات العالمية في أغلب الأحيان بسبب توفر المال العام والخاص، فمِن ناحية المضمون يبقى الأمر مغايراً تماماً لسبب بسيط، هو غياب الديمقراطية. إذ لا مصداقية لإعلام لا يملك حرية البحث والقول. الإعلام جزء من منظومة عامة، إذا انتفى ركن من أركانها تهاوى كل البناء. إذن لا ديمقراطية بلا إعلام حر ولا إعلام حر بلا نظام ديمقراطي إلا في حالات معقدة ونادرة جداً يكون فيها في حالة صراع مرير مع نظام الحكم. يقول "عمر بلهوشات"، مدير يومية من أكبر اليوميات في الجزائر، إنه وبعض زملاء له في صحف أخرى أصبحوا يقضون من الوقت في المحاكم أكثر مما يقضون في قاعات التحرير!

فبدون صحافة ذات قيمة، يقول الفيلسوف هابرماس، تتحول الديمقراطية إلى شعبوية.

ها نحن نعود إلى من هو أسبق البيضة أم الدجاجة!

لا يا عزيزتي هذا ليس نقاشاً بيزنطياً، بل الأمر جدلي. فالحداثة الإعلامية هي وليدة الحداثة السياسية بشكل عام، فمِن العبث أن ننتظر ظهور حرية صحافة في جو ثقافي سياسي "ما قبل حديث" لا يسمح بذلك فحسب بل يعادي التعبير الحر أصلاً لأسباب متعلقة بشرعية السلطة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج. صحيح لقد استفاد الإعلام في الدول العربية من التقنية (قشرة الحداثة)، ولكن لا يستطيع أن يكون حديثاً (الحداثة) في بلدان لا يكون فيها القضاء مستقلاً استقلالاً كاملاً. يستمد الإعلام استقلاليته من استقلالية السلطات الثلاث الأخرى، وهو شرط لم يتحقق بعد في العالم العربي، لسبب بسيط هو أن الدولة ما زالت فيه دينية. أتعرفين أن صحف القطاع العام لا تعدو أن تكون سوى مجرد مناشير دعائية للأنظمة القائمة؟

هذا تمييز تطبيقي جيد بين الحداثة والتحديث الذي تطرقنا إليه في بداية حديثنا. لكن قل لي هل هناك أمل في تحرر الإعلام العربي في يوم من الأيام؟

ربما سيدفع إعلام الإنترنيت الموازي الإعلام العربي الكلاسيكي المتكلس إلى البحث عن مصداقية بديلة بعيدة عن تعسف العسكر ودولارات المشايخ وأحاديث رجال الدين. وساعتئذ يَطرح هذا الإعلام قضايا الحداثة والتنوير والعلمانية ويصبح من المدافعين عنها. وعلى كل حال فمع ظهور هذا الإعلام الموازي على الإنترنيت لم يعد هذا الإعلام الخادم للفكر الديني لوحده في الساحة، وبات مِن الصعوبة عليه أن يمارس الأظلمة كما يحلو له. لقد ولى ذلك الزمن الذي كان يحارَب فيه الذكاء ويُروَّج للتتريث والتخلف كيفما شاء، ويعمل كل ما في وسعه من أجل تغييب التراث العقلاني العربي.

ولمن تكون الغلبة في نظرك؟

في انتظار الطفرة العقلانية، يبقى "الإعلام العربي" متمادياً في نشر وترسيخ ثقافة القطيع ومُحوِّلاً النزوع اللاعقلاني إلى رأي عام. ولا يزال كسابق عهده يقدم للأصولية، بوعي أو وبدون وعي، أعظم الخدمات. فهو الوسيلة التي وُضعت لتكون حجر عثرة أمام انعتاق الفرد العربي. فهو يعمل ليل نهار لإغراقه أكثر فأكثر في بحر اللاعقلانية المظلم، ويقدّمه كلقمة سائغة لعرّابي الأصولية الشاملة.

ألست قاسياً نوعاً ما على الصحافة والإعلام بشكل عام؟

في يوم من الأيام سيكون التاريخ أقسى بكثير. سيقول إن الإعلام العربي قد مارس تجاه "الإسلام هو الحل" ما لخصّته "حنا آرنت" في عبارة شهيرة، وصفت بها موقف البعض من النازية وهي "عادية الشر". وسيُحاكم هذا الإعلام بتهمة التغرير بالجمهور وتهمة الامتناع عن نجدة شعوب في خطر؛ الخطر الديني.

ويحزنكَ كل هذا التعثر؟

يؤلمني أشد الألم، بل يبقى هو هاجسي الأول والأخير.

لكن أنتَ تعيش هنا في فرنسا منذ مدة طويلة؟

لا.. أنا أسكن في فرنسا فقط، ولكنني أعيش هناك في البلد... رغم أنفي.

ألم تقل لي يوماً حينما سألتك عن مرحك الطفولي الدائم أن ذلك خارج عن نطاقك لأنك "لم تفلح أبداً في جعل نفسك حزيناً بشكل جدي"؟

تلك مقولة شهيرة للفيلسوف باسكال، ولكن لا أنفي أنني قلت لكِ ذلك. وعلى لطافة العبارة فلسنا نحن المسؤولون عن حزننا دائماً. على كل حال أعترف لك بأنني لم أستطع أن أملك حياتي الخاصة كما كنت أرغب، على الأقل حتى الآن. تعرفين أنه كان من الصعب علي أن أتمتع باستقلاليتي وفرديتي في مجتمع تسيطر عليه ذهنية الجماعة كيلا أقول القطيع. أن أفكر بنفسي، أن أتقبل بأنني بلا بوصلة أو معلم أو أساس سوى عقلي الذي أحدد به مصيري.. كان ذلك مرهقاً تطلب معركة يومية، بل معركة في كل لحظة. ربما تجد الأصولية قوتها الكبيرة في الحشد وكسب الأنصار باطراد في غياب الفرد. تلك إجابتي وإن كانت ملتوية على سؤالك الواضح. وعلى كل حال أتمنى أن أكون قد أثرت بإجاباتي أسئلة أخرى حول الأصولية التي تهيمن على ثقافة بلادك الأصلية وتؤرق مضجع العالم كله. ولأشكرك على صبرك في مواجهة هذا الموضوع الحزين سأترك لك الكلمة الأخيرة.

لقد وجدت كثيرا من المتعة وأنا أتحاور معكَ في مسألة الأصولية طيلة هذه الأسابيع، ولا أخفيك أنني أشعر اليوم بنوع من الحزن ونحن ننهي الحديث تسجيلاً، رغم أنني أعرف أن الحديث سيستمر بطريقة أو بأخرى، على مائدة الطعام ونحن نتصارع في لعبة البادنتون، ونحن نقطع المسافات مشيا على الأقدام، الرينو 11 كما تقول، وعلى الشاطئ وفي شرفات المقاهي وفي السيارة وفي كل زمان نكون فيه معاً وفي كل مكان.

وحتى حينما لا نكون معاً سيستمر حوارنا. سأندم حتما على أشياء يكون قد فاتني تسجيلها .

وربما حتى عن الأشياء التي قلتها (ونقهقه معاً في نوع من نوستالجيا استباقية).